

**رؤيا ملك مصر وتأويلها
في سورة يوسف عليه السلام**
دراسة تحليلية موضوعية

وكتور

محمد أحمد محمود شلبي

المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية أصول الدين - المنصورة

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد، فهذا ملخص بحث بعنوان: «رؤيا ملك مصر وتأويلها في سورة يوسف عليه السلام، دراسة تحليلية موضوعية».

وقد تناول هذا البحث آيات رؤيا ملك مصر وتأويلها في سورة يوسف -عليه السلام- تناولاً تحليلياً، موضوعياً، يهدف إلى إبراز الأسس والقواعد التي اعتمدها سيدنا يوسف -عليه السلام- لحل الأزمة الاقتصادية التي واجهت البلاد في تلك الفترة، وكان الغرض من وراء ذلك: إثبات صلاحية الحل القرآني لكل مشاكل الحياة بأنواعها المختلفة، وأنه كتاب للدين والدنيا معاً.

وقد جاء ذلك في مبحثين سبقاً بمقدمة تناولت إشكالية البحث، ودوافع اختياره، والمنهج المتبع في كتابته، وحدوده، وخطته، ثم تناول **المبحث الأول** آيات الرؤيا وتأويلها تناولاً تحليلياً بالتعرض لها من كل الجوانب اللفظية، والبيانية.

ثم تناول **المبحث الثاني**، آيات الرؤيا تناولاً موضوعياً، لبيان الركائز والأسس التي اعتمدها سيدنا يوسف -عليه السلام- لحل تلك الأزمة، وقد تم تقسيم هذه الأسس إلى قسمين، **القسم الأول**: الأسس العلمية والعملية، وتمثلت في إقامة تلك المبادرة على أساس من وضوح الرؤية والتخطيط المحكم، والعمل الدؤوب المتواصل، والمعرفة بفقهاء الأولويات والمآلات، وتفهم طبيعة الزمن، ومعرفة سنن الله -تعالى- في الحياة، واتخاذ التدابير اللازمة لحماية المنتج.

وأما القسم الثاني فقد تناول الأسس الروحية والنفسية التي اعتمد عليها يوسف -عليه السلام- لحل الأزمة، وقد تمثلت في: إقامة تلك المبادرة على أساس من نور الوحي وهدى النبوة، وبنائها على أساس من التجرد والإخلاص ونسيان الذات، وبنائها على أساس من التفاؤل وبعث الأمل في النفوس، وبنائها على أساس من الجرأة المحمودة والشجاعة الأدبية المطلوبة، وأخيرا بنائها على أساس من الكفاءة الشخصية وإسناد الأمور لذويها، والله الموفق والمستعان.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، تبصرة وذكرى لأولى الألباب، أنزله جامعا، ونورا ساطعا، وضياء لامعا، وحكما قاطعا، ودواء ناجعا.

والصلاة والسلام والأتمان الأكملان على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن القصص القرآني بالإضافة إلى كونه محلا للعظة والاعتبار والدعوة إلى التوحيد، يشتمل كذلك على علاج لأعراض ومشاكل كثيرة باختلاف أنواعها، اجتماعية وسياسية واقتصادية، وغيرها.

وما من قصة من القصص القرآني إلا وفيها علاج لمرض من الأمراض المختلفة؛ فقصّة شعيب -عليه السلام- مثلا عالجت مرض التطفيف في الكيل والميزان والذي يسمى الآن بالغش التجاري، وقصة هود وصالح عليهما السلام جاءت فوق الأغراض المعروفة للقصة لعلاج مشكلة الترف والإسراف، وقصة لوط -عليه السلام- جاءت بالإضافة إلى الأغراض السابقة لعلاج مشكلة الشذوذ الجنسي.

ومن أعظم قصص القرآن: قصة سيدنا يوسف -عليه السلام-، فإن لهذه القصة مميزات تفردت بها عن سائر القصص القرآني، حيث وردت كاملة من أولها إلى منتهاها في سورة واحدة، ولم تتكرر كما تكرر كثير من قصص القرآن، إلى جانب ما اشتملت عليه من العبر والعظات، والأسرار والدلالات، وذلك جدير بأن يسترعي انتباه الباحثين، ويلفت

أنظارهم إلى ضرورة التأمل فيها، ومحاولة استخراج ما يمكن فيها مما يفيد في واقع الحياة.

وكان من بواعث الفخر أن مبادرة سيدنا يوسف -عليه السلام- لحل المشكلة الاقتصادية التي واجهت مصر في زمنه على أثر رؤيا ملك مصر في تلك الفترة قد خرجت من أرض مصر، وأصبحت نموذجا يحتذيه كل رجال الاقتصاد في العالم حين يواجهون أزمة أو مشكلة اقتصادية تهدد أمن واستقرار المجتمعات.

ومن بدائع الاتفاقات في رؤيا ملك مصر أن عدد الآيات جاء على وفق عدد السنوات فقد رأى الملك سبع بقرات، وسبع سنبلات، وأولها سيدنا يوسف -عليه السلام- بسبع سنوات، تعقبها سبع سنوات، ثم جاء الحديث عن ذلك في السورة الكريمة في سبع آيات: [٤٣ - ٤٩]، فأى كتاب قد حوى هذه الأسرار أو بعضها؟!.

وهذا جزء من القصة، فكيف لو تتبعتها أفكار الباحثين وتأملتها قرائحهم، وتدبرتها عقولهم، وكيف لو تتبعوا بقية القرآن بالصورة السابقة؟ ولذلك شرعت - مستعينا بالله تعالى - في تجلية ما احتوته الآيات محل البحث من ركائز، وأسس، ومبادئ لحل الأزمة الاقتصادية التي واجهت مصر في تلك الفترة، عسى أن يكون نبراسا لمبتغي الإصلاح، وشعاعا يضيء الطريق أمام العاملين المخلصين لأوطانهم وأمتهم.

إشكالية البحث

يحاول هذا البحث أن يجيب على تساؤل مهم، مفاده: هل تضمن القرآن الكريم من المبادئ، والأسس ما يصلح لعلاج مشكلات الحياة، وأزماتها بأنواعها المختلفة، أم أنه كتاب دعوة، ووعظ، وتذكير ولا شيء

وراء ذلك؟! وبتعبير آخر: هل هذا القرآن كتاب دين فقط، أم كتاب دين ودنيا؟

ويتفرع عن هذا التساؤل سؤال، هو: ما الركائز والأسس التي اعتمد عليها سيدنا يوسف -عليه السلام- لحل المشكلة الاقتصادية التي واجهت مصر في عهده.

دوافع اختيار البحث

وكان مما دفعني لاختيار هذا الجزء من القصة ودراسته دراسة تحليلية عدة أمور، منها:

١. محاولة استخراج دلالات وأبعاد جديدة في القصة القرآنية، فليس القصة القرآني لمجرد المتعة الأدبية، والذوق الوجداني المنفصل عن التأمل العقلي بل هو لكل ما سبق وفوقه بكثير فإن الله تعالى قد ذكر حكما كثيرة للقصة القرآني، وكان من أبرزها إعمال العقل في نص القصة، واستنباط أبعاد جديدة فيها، قال تعالى: ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٢. الخروج بعلوم التفسير من دائرة البحث النظري إلى الواقع العملي لتختلط به وتحل مشاكله، وقد لاحظت أن الآيات محل البحث ترتبط ارتباطا شديدا بواقعنا المعاصر، والذي يشهد مشاكل اقتصادية كبيرة تحتاج إلى تضافر الجهود لمواجهةها والسعي في حلها، فكانت هذه المحاولة.

٣. تجلية بعض ملامح الإعجاز البياني للقرآن حيث اشتملت هذه الآيات السبع موضع البحث على مجموعة مبادئ ودلالات كفيلة بتحويل حياة المسلمين إلى الأفضل والأحسن، مع أنها لم تتجاوز أسطرا يسيرة

في المصحف الشريف، وقد حوت إلى جانب ذلك من حسن العرض، وبراعة الإيجاز، ما فاق حد الإعجاز، وهذا من بدائع البيان القرآني الذي نتية به على العالمين.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي الاستنباطي، للآيات الكريمة محل الدراسة، حيث تتبعت كل جزئية من جزئياتها بالدراسة، والتحليل محاولا استخراج ما يمكنني من الأسرار، والدلالات التي تنفع مجتمعاتنا في محنتها الراهنة، متأنيا دائبا واقفا مع النص الكريم أحاول أن أسبر بعض أغواره، وأستجلي بعض أسراره، والله المستعان وعليه التكلان.

حدود البحث:

جعلت هذا البحث مقصورا على دراسة الجزء الخاص برؤيا ملك مصر، وتأويل سيدنا يوسف -عليه السلام- لها، والتي رسمت خطة ناجحة محكمة لتقادي الأزمة التي واجهتها مصر في تلك الفترة، تجنبا لطول البحث، وأضفت إليها الآيتين: السادسة والخمسين، والسابعة والخمسين^(١) لأنهما من مستتبعات القصة ومكملاتها وفيهما من الدلالات التي يحتاج إليه البحث، كما أنني لم أتردد في الاستعانة ببعض الدلالات المنثورة في ثنايا سورة يوسف عليه السلام إذا اقتضى البحث ذلك.

خطة البحث:

وقد اقتضت طبيعة البحث في الآيات محل الدراسة أن يأتي في مقدمة، وتمهيد ومبحثين، وخاتمة

(١) وهما قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

أما المقدمة، فقد تحدثت فيها عن إشكالية البحث، ودوافع اختياره، والمنهج المتبع فيه وحدوده، وخطة البحث.

وأما المبحث الأول: فقد جعلته في التفسير التحليلي لآيات الرؤيا. وقد جاء في مطلبين:

المطلب الأول: في التمهيد لتفسير الآيات.

المطلب الثاني: في تفسير آيات القصة تفسيراً تحليلياً، وقد تتبعته فيه الآيات، آية آية بالتفسير والتحليل.

المبحث الثاني: في بيان الأسس والركائز التي أقيمت عليها مبادرة سيدنا يوسف - عليه السلام - لحل الأزمة الاقتصادية وقد جاء هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: الأسس العلمية والعملية التي اعتمدت عليها مبادرة يوسف عليه السلام.

المطلب الثاني: الأسس الروحية والنفسية التي اعتمدت عليها مبادرة يوسف عليه السلام.

الخاتمة، وتشتمل على:

- أهم نتائج البحث.

- فهرس المصادر والمراجع.

المبحث الأول

التناول التحليلي للآيات موضوع الرؤيا

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

تعريف موجز بسورة يوسف - عليه السلام -

وفيه:

أولاً: مكان نزول السورة، وترتيبها في المصحف والنزول، وعدد آياتها.

سورة يوسف - عليه السلام - - مكية بإجماع المفسرين، وقد استثنى منها بعض المفسرين آيات من أولها زعموا أنها مدنية^(١)، وهذا غير صحيح، ومخالف لما أجمع عليه المفسرون من مكية السورة كلها، قال الطاهر ابن عاشور: « وَهِيَ مَكِّيَّةٌ عَلَى الْقَوْلِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي الْإِتِّقَانُ إِلَى غَيْرِهِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْأَيَاتِ الثَّلَاثَ مِنْ أَوَّلِهَا مَدَنِيَّةٌ. قَالَ فِي «الْإِتِّقَانِ»: وَهُوَ وَاهٍ جِدًا لَا يُلْتَقَتُ إِلَيْهِ^(٢)»

ثانياً: ترتيبها في النزول والمصحف

نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ هُودٍ، وَقَبْلَ سُورَةِ الْحَجْرِ، وَهِيَ السُّورَةُ الثَّلَاثَةُ وَالْحَمْسُونَ فِي تَرْتِيبِ النُّزُولِ، وَالثَّانِيَةَ عَشْرَةَ فِي تَرْتِيبِ الْمَصْحَفِ^(٣).

(١) ينظر: الكشاف ٢/٤٤٠، تفسير ابن عطية ٣/٢١٨، تفسير الرازي ١٨/٤١٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٢/١٩٧، الإتيقان ١/٥٩، روح المعاني ٦/٣٦٢، تفسير المنار ٢٠٧/١٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٢/١٩٧، الإتيقان ١/٥٩.

ويبدو أن سورة يوسف - أيضا - كان نزولها في الفترة المكية، وذلك لأنها نزلت بعد سورة هود، وقد كان نزول سورة هود في الفترة التي أعقبت رحلة الإسراء والمعراج، وهذه الفترة تعتبر من أشق الفترات في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ تعرض خلالها للكثير من أذى المشركين، بعد أن فقد - صلى الله عليه وسلم - في هذه الفترة عمه أبا طالب، وزوجه السيدة خديجة - رضی الله عنها.

ونزول سورة يوسف في هذه الفترة، كان من أعظم المسليات التي واصلها الله - تعالى - بها نبيه صلى الله عليه وسلم فقد أخبره عما دار بين يوسف وإخوته، وعما تعرض له هذا النبي الكريم من مصائب وأذى.

ولا شك أن في ذلك تسلياً للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه، ففي الوقت الذي كان يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش - منذ عام الحزن - كان الله - تعالى - يقص عليه قصة أخ له كريم هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهو يعاني صنوفاً من المحن والابتلاءات: محنة كيد الإخوة، ومحنة الجب، ومحنة الرق، ومحنة كيد امرأة العزيز، ومحنة السجن، ثم محنة الرخاء والجاه والسلطان، فلا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك تسلياً للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه عما أصابهم من أعدائهم، وتسرية لقلوبهم وتطمينا لنفوسهم، ولكأن الله - تعالى - يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم -: كما أخرج يوسف من حضان أبيه ليواجه هذه الابتلاءات كلها، ثم لينتهي بعد

ذلك إلى النصر والتمكين. . كذلك أنت يا محمد ستخرج من بلدك مكة مهاجرا، ثم تعود إليها في الوقت الذي يشاؤه الله ظافرا منتصرا.^(١)

ثالثا: عدد آياتها

وَعَدَّدَ آيَهَا مِائَةً وَاحِدَى عَشْرَةَ آيَةً بِإِتِّفَاقِ أَصْحَابِ الْعَدَدِ فِي الْأَمْصَارِ^(٢)

رابعا: مقاصد السورة الكريمة

أهم أغراض سورة يوسف: بَيَانُ قِصَّةِ يُوسُفَ -عليه السلام- مَعَ إِخْوَتِهِ، وَمَا لَقِيَهِ فِي حَيَاتِهِ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْعِبَرِ مِنْ نَوَاحٍ مُخْتَلِفَةٍ.^(٣)

يقول صاحب المنار: « وأما سورة يوسف فهي قصة نبي واحد وجد

في غير قومه قبل النبوة صغير السن، وبلغ أشده واكتهل فنبي وأرسل ودعا إلى دينه، وكان مملوكا ثم تولى إدارة المُلْكِ لقطر عظيم، فأحسن الإدارة والتنظيم، وكان خير قدوة للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وطوارئها وطوارقها، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة، فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة، وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه، ثم كانت إلى تمام المائة في تاريخ يوسف، وختمت بإحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين، وإعجاز كتابه، والعبرة العامة بقصص الرسل -عليهم السلام-»^(٤)

(١) التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي ٣٠٠/٧.

(٢) البيان في عد أي القرآن ص: ١٦٧، جمال القراء وكمال الإقراء ٥٢٦/٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٩٨/١٢.

(٤) تفسير المنار ٢٠٧/١٢.

والم تأمل في السورة الكريمة يجدها قد تعرضت في ثنايا عرضها لقصة يوسف -عليه السلام- لعدة أمور في غاية الأهمية، ومن هذه الأمور:

١- إبراز الحقائق والهدايات، بأسلوب المحاورات والمجادلات والمناقشات، ومن مظاهر ذلك: المحاورات التي دارت حول إخوة يوسف في شأن الانتقام منه، والمحاورات التي دارت بين يوسف وإخوته، بعد أن عرفهم وهم له منكرون، وبعد أن ترددوا عليه ثلاث مرات للحصول على حاجتهم من الزاد، والسورة الكريمة زاخرة بأسلوب المحاورات والمناقشات والمجادلات. تارة بين يوسف وإخوته، وتارة بين إخوته فيما بينهم، وتارة بينهم وبين أبيهم، وتارة بين يوسف وامرأة العزيز، وتارة بينه وبين ملك مصر في ذلك الوقت، وهذه المحاورات قد أكسبتها لونا من العرض المشوق، الذي يجعل القارئ لها يتعجل حفظ كل موضوع من موضوعاتها، ليصل الى الموضوع الذي يليه، وهذا الأسلوب في عرض الحقائق من أسمى الأساليب التي تعين القارئ على حفظ القرآن الكريم، وعلى تدبر معانيه، وعلى الانتفاع بهداياته.

٢- عناية السورة بجوهر الأحداث ولبابها، أما تفاصيل هذه الأحداث، فقد تركت معرفته الفهم القارئ وفطنته، وسلامة تفكيره، وحسن تدبره لكلام الله -تعالى- وهذا اللون من العرض للأحداث، يسمى في عرف البلغاء، بأسلوب الإيجاز بالحذف والقارئ لهذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل، يراها على رأس السور القرآنية التي كثر فيها هذا الأسلوب البليغ، وهذا الأسلوب الذي زخرت به السورة الكريمة، وهو أسلوب الإيجاز بالحذف، من شأنه أنه ينشط العقول، ويبعثها على التأمل والتدبر فيما تقرأه، ويعينها على الاتعاظ والاعتبار، وهو أسلوب

تقتضيه هذه السورة الكريمة أيضا لأنها تتحدث عن قصة نبي من أنبياء الله - تعالى - والحديث عن ذلك يستلزم إبراز جوهر الأحداث ولبابها، لا إبراز تفاصيلها وما لا فائدة من ذكره، فاشتمال السورة الكريمة على هذا الأسلوب البليغ، هو من باب رعاية الكلام لمقتضى الحال، وهو أصل البلاغة وركنها الركين، وسيأتي مزيد بيان لهذا الأسلوب في ثنايا البحث بإذن الله تعالى.

٣- السورة الكريمة اهتمت اهتماما واضحا بشرح أحوال النفس البشرية وتحليل ما يصدر عنها في حال رضاها وغضبها، وفي حال صلاحها وانحرافها، وفي حال غناها وفقرها، وفي حال عسرها ويسرها، وفي حال صفائها وحقدها، وقد حدثتنا عن الشخصيات التي وردت فيها: (يوسف - عليه السلام - يعقوب - عليه السلام - إخوة يوسف - عزيز مصر - امرأة العزيز - ملك مصر في تلك الفترة) حديثا صادقا أميناً، كشفت لنا فيه عن جوانب متعددة من أخلاقهم، وسلوكهم، وميولهم، وأفكارهم، وأعطت كل واحد منهم حقه في الحديث عنه^(١).

(١) التفسير الوسيط، د محمد سيد طنطاوي ٣٠٨/٧.

المطلب الثاني

التفسير التحليلي للآيات الكريمة

صلة آيات الرؤيا بما قبلها من آيات السورة الكريمة:

هذه الآيات حلقة من حلقات قصة يوسف -عليه السلام- وجزء منها. قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى: « هذا عطف جزء من قصة على جزء منها تكملة لوصف خلاص يوسف-عليه السلام- من السجن»^(١)، وقال صاحب المنار:«هذا السياق عطف على سياق (صاحبي السجن) وما قالاه في قص رؤاهما على يوسف»^(٢). وهذا المقطع من السورة رؤيا من ثلاث رؤى تحدثت عنها السورة الكريمة، وهي:

١- رؤيا سيدنا يوسف -عليه السلام- التي ذُكرت في أول السورة في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٣).

٢- ورؤيا صاحبي السجن التي قصاها علي سيدنا يوسف -عليه السلام- وأولها لهم فجاءت كما أخبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِينًا

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ٢٧٩.

(٢) تفسير المنار ٢ / ٤٧٣.

(٣) سورة يوسف الآيتان: ٤، ٥.

بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخِرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَضَيَّ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١﴾.

٣- ورؤيا الملك، وهي الرؤيا الأخيرة التي أعقبها الفرج ليوسف -عليه السلام- والخروج من أزمته وشدته، وهي موضع البحث وموضوعه، والتي تبدأ من قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿١﴾ وتنتهي عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢﴾.

تفسير قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٣﴾

(١) سورة يوسف الآيات: ٣٦، ٣٧، ٤١.

(٢) سورة يوسف الآيات: ٤٣- ٥٧.

(٣) سورة يوسف: ٤٣، ٤٤.

اسم الملك المذكور في الآية:

ذكر المفسرون أن الملك المذكور اسمه: «الريان بن الوليد»^(١) وقد ضعف الطاهر ابن عاشور هذا الرأي وعده من الأوهام التي سرت إلى المفسرين بسبب ما تلقوه عن القصاص، قال: «واسم فرعون يومئذ أبو فيس أو أبيبي وأهل القصص ومن تلقف كلامهم من المفسرين سموه «ريان بن الوليد» وهذا من أوهامهم وكان ذلك في حدود سنة ١٧٣٩ قبل ميلاد المسيح»^(٢).

قلت: إن ما أبهمه القرآن من أسماء الأعلام، وغيرها لا ينبغي البحث عنه، ولا تتبعه إذ لو كان في التصريح به فائدة لما أغفله القرآن، والعبرة بالفائدة المستخلصة من القصة لا بذكر أبطالها والأشخاص الذين دارت عليهم أحداثها، وحيث كان في ذكر الأشخاص والأماكن فائدة فإن القرآن يصرح بأسمائها^(٣) أما عند عدم الفائدة فإن القرآن الكريم يطوي ذكر هذه الأمور، ويركز على الفعل لا على الفاعل.

(١) تفسير الخازن ٥١٩/٢، تفسير الطبري ١١٧/١٦، تفسير الرازي ٤٣٥/١٨،

تفسير القرطبي ١٩٨/٩، تفسير الألويسي ٤١٦/٦.

(٢) التحرير والتنوير ٤٩١/١.

(٣) وذلك كالتصريح بذكر اسم سيدنا زيد بن حارثة - رضي الله عنه - في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ وكالتصريح باسم السيدة مريم عليها السلام- في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز، قال الإمام الزركشي في البرهان: « قيل لم يذكر الله تعالى امرأة في القرآن وسماها باسمها إلا مريم بنت عمران فإنه ذكر اسمها في نحو ثلاثين موضعا لحكمة ذكرها بعض الأثيخ قال إن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم ولا يبتذلون أسماءهم يكونون عن الزوجة بالعرس والعيال والأهل ونحوه فإذا ذكروا الإمام لم يكونوا عنهم ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر والتصريح بها فلما قالت النصارى في مريم وفي ابنها ما قالت صرح الله تعالى باسمها ولم يُكَنَّ عنها تأكيدا لأمر العبودية التي =

وبالنسبة لاسم الملك في هذا السياق، فيكفي أن نعرف أنه أحد الملوك الذين حكموا القطر المصري في تلك الفترة، وأن نفرغ بعد ذلك للتأمل في الآيات لاستنباط ما فيها من عبر وعظات.

مجمل رؤيا الملك:

ومجمل رؤياه التي رآها أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجافُ السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعاً آخر يابسات قد استحصدت وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها^(١).

نوع الرؤية في الآية:

والرؤية المذكورة في الآية رؤيا منام، لا رؤيا عين ويقظة، وإن لم يُنص على ذلك في الآية؛ لتعارف العرب بينها في كلامها إذا قال القائل منهم: "أرى أني أفعل كذا وكذا" أنه خبرٌ عن رؤيته ذلك في منامه، وإن لم يذكر النوم فجاء التعبير على ما قد جرى به الاستعمال العربي^(٢).

حكم رؤيا الكافر:

ذكر المفسرون أن في الآية دليلاً على صحة رؤيا الكافر، ولكن التأمل في أحداث القصة يجد أن الرؤيا أقرب إلى كونها معجزة ليوסף -

=هي صفة لها وإجراء للكلام على عادة العرب في ذكر أبنائها ومع هذا فإن عيسى لا أب له واعتقاد هذا واجب فإذا تكرر ذكره منسوباً إلى الأم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله،

وأما الرجال فذكر منهم كثيراً وقد سمي الله زيدا في سورة الأحزاب للتصريح بأنه ليس ابناً للنبي ﷺ « البرهان ١/١٦٣، وينظر أيضاً الإتيان ٤/٩٤، وما بعدها

(١) الكشاف ٤٧٣/٢.

(٢) تفسير الطبري ١١٦/١٦.

-عليه السلام- - وسبيلا وسببا لخروجه من غياهب السجن، من كونها مجرد رؤيا لرجل كافر، وهو ما أكده الإمام أبو بكر بن العربي، وتابعه الإمام القرطبي - رحمهما الله تعالى- حيث قال ابن العربي: « هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تخرج على حسب ما رأى، لا سيّما إذا تعلقت بمؤمن، فكيف إذا كانت آيةً لنبي، ومعجزةً لرسول، وتصديقاً لمصطفى للتبليغ، وحجةً للواسطة بين الله- جَلَّ جلالُهُ- وبين عباده»^(١).

قلت: ورؤيا الكافر والفاسق وغيرهما ممن ليسوا على قدم الصلاح لا تُصدق إلا نادرا وأغلب رؤى الكفار التي حفظتها كتب التراث كان لها علاقة بالأنبياء المعاصرين لهم أو كانت تمهيدا لحدث يتعلق بهؤلاء الأنبياء، كأن تكون إرهابا لنبوة نبيّ، أو معجزة له، أو لها تعلق بحدث من الأحداث المتصلة بذلك النبي، فهي في جوهرها وغايتها مرتبطة بهذا النبي، ولا دلالة فيها على كرامة رائئها، قال الإمام العراقي في شرح التقريب عند تعليقه على حديث النبي - ﷺ - «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ جِزَاءً مِنَ النَّبُوَّةِ»^(٢): « وأما الرؤيا من الكافر فقد وردت في القرآن وقد كان كفار العرب والأمم ترى الرؤيا الصحيحة، ولا تعد أيضا في النبوة، ولكنها تدخل في باب الندارة، وقال أبو العباس القرطبي: لا تكون الرؤيا من أجزاء النبوة إلا إذا وقعت من مسلم صادق صالح وهو الذي يناسب حاله حال النبي - صلى الله عليه وسلم-؛ فإن الكافر، والكاذب، والمخلط، وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٥٦/٣، تفسير القرطبي ٢٠٤/٩.

(٢) طرح التثريب في شرح التقريب ١٩٨/٨، والحديث في صحيح البخاري كتاب التعبير باب الرؤيا الصالحة جُزْءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ، رقم: ٦٩٨٦، ومسلم في صحيحه كتاب الرؤيا، رقم: ٢٢٦٤.

الوحي، ولا من النبوة؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوةً، والكاهن يخبر بكلمة الحق، وكذلك المنجم قد يحدث فيصدق، ولكن على الندور والقلة، وكذلك الكافر، والفاسق، والكاذب، وقد يرى المنام الحق، ويكون ذلك المنام سببا في شر يلحقه أو أمر يناله إلى غير ذلك من الوجوه المعتمدة المقصودة به، وقد وقعت لبعض الكفار منامات صحيحة صادقة، كمنام الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتين في السجن، ومنام عاتكة^(١) عمة النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي كافرة^(٢)، ونحوه كثير، لكن ذلك قليل بالنسبة إلى مناماتهم المخالفة والفاصلة « وقد ذكر ذلك القرطبي أيضا في تفسيره أوائل سورة يوسف^(٣)

(١) ذكر ابن هشام في السيرة أن عاتكة بنت عبد المطلب رأت قبل وقعة بدر في منامها أن رَأَيْتُ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ، حَتَّى وَقَفْتُ بِالْأَبْطَحِ، ثُمَّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَلَا أَنْفِرُوا يَا لَعْدَرُ لِمَصَارِعِكُمْ فِي ثَلَاثِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَالنَّاسُ يَتَّبِعُونَهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ حَوْلُهُ مَثَلٌ بِهِ بَعِيرُهُ عَلَى طَهْرٍ الْكَعْبَةِ، ثُمَّ صَرَخَ بِمِثْلِهَا: أَلَا أَنْفِرُوا يَا لَعْدَرُ لِمَصَارِعِكُمْ فِي ثَلَاثِ: ثُمَّ مَثَلٌ بِهِ بَعِيرُهُ عَلَى رَأْسِ أَبِي قُبَيْسٍ، فَصَرَخَ بِمِثْلِهَا. ثُمَّ أَحَدَ صَخْرَةً فَأَرْسَلَهَا. فَأَقْبَلَتْ تَهْوِي، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بِأَسْفَلِ الْجَبَلِ ارْفَضَتْ، فَمَا بَقِيَ بَيْتٌ مِنْ بَيْتٍ مَكَّةَ وَلَا دَارٌ إِلَّا دَخَلَتْهَا مِنْهَا فَلَقَهُ» السيرة النبوية لابن هشام ٦٠٧/١.

(٢) وذلك لأن الرؤيا التي رأتها كانت إبان وقعة بدر، وكانت عاتكة وقتها بمكة، وقد اختلف العلماء في إسلامها فبعضهم يرى أنها أسلمت وهاجرت إلى المدينة للإمام ابن سعد في الطبقات ٣٦/٨، والإمام خليفة ابن خياط في طبقاته ص: ٦٢٠، وبعضهم ينفي ذلك، كابن عبد البر في الاستيعاب ١٨٨٠/٤، وابن حبان في الثقات ٣٥/١، وقد أورد ابن حجر خلاف العلماء حول إسلامها في الإصابة ٢٢٨/٨. ولم يرجح رأيا منها.

(٣) تفسير القرطبي ١٢٤/٩، طرح التثريب في شرح التقریب ١٩٨/٨، فتح الباري ٣٦٢/١٢.

المراد بالملأ:

و ﴿ الْمَلَأُ ﴾: أشرف القوم ونبلاؤهم الذين تملأ العيون مناظرهم، والقلوب مخابرتهم ومآثرهم، وهم الجماعة يجتمعون على رأي، فيملئون العيون رؤاء ومنظرا، والنفوس بهاء وجلالا^(١)، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾^(٢)، ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾^(٣) ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾^(٤).

معنى قوله ﴿ تعبرون ﴾ والفرق بين التعبير والتأويل:

عبارة الرؤيا: تأويلها بالعبور من علنها إلى سرها كما تعبر من عبر النهر - أي شطه - إلى غيره الآخر، ومثله: أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها ومرجعها، وقد ذهب الراغب إلى أن (التعبير) مختص بالرؤيا، وأنه أخص من (التأويل)، والتأويل أعم منه فهو يطلق على تعبير الرؤيا وعلى غيره^(٥).

قلت: ويظهر من تتبع الاستعمال القرآني لكلمتي التعبير والتأويل أن التأويل فيما يكون فيه معرفة بمآل الرؤيا، وما تؤول إليه في الواقع، بخلاف التعبير فإنه يكون فيما يُظن أو يُتوقع تحققه من الرؤى، وبذلك يكون التعبير عبارة عن تفسير الرؤيا بلا جزم بوقوع أحداثها، فقد تقع وقد لا تقع، والتأويل تفسير الرؤيا تفسيراً يطابق الواقع.

(١) المفردات (ملأ) نظم الدرر ٩٩/١٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٦.

(٣) سورة الأعراف: ٦٠.

(٤) سورة القصص: ٢٠.

(٥) نظم الدرر ٩٩/١٠، المفردات في غريب القرآن، معجم مقاييس اللغة: (عبر)

ومن خلال تتبع سياق سورة يوسف - عليه السلام -، تبين أن لفظ التأويل قد ورد ثماني مرات، سبعة منها فيما صدقت فيه الرؤيا وطابقت الواقع، وموضع واحد منها وردت فيه الرؤيا منفيًا العلم بها.

ففي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(٥)

في هذه الآيات الخمس حديث عما تحقق من الرؤيا؛ لأن الآيتين الأوليين حديث من الله تعالى ع تعليم يوسف تأويل الرؤى، وهو حديث الصدق الذي لا كذب فيه، وفي الآيات الثلاث الأخيرة، حديث عما تحقق من الرؤى على لسان سيدنا يوسف - عليه السلام - فجاءت مطابقة للواقع كما أخبر - - عليه السلام -.

وفي قوله تعالى على لسان صاحبي السجن: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٦)، وقوله تعالى على لسان الذي نجا منهما: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ

(١) سورة يوسف: ٦.

(٢) سورة يوسف: ٢١.

(٣) سورة يوسف: ٣٦.

(٤) سورة يوسف: ١٠٠.

(٥) سورة يوسف: ١٠١.

(٦) سورة يوسف: ٣٧.

بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسَلُونِ ﴿١﴾ جاء التعبير بلفظ التأويل دلالة على ثقتهما في يوسف - عليه السلام - فما يقول شيئا إلا جاء كما يخبر. بينما نرى التعبير جاء على لسان الملك بلفظ ﴿تَعْبُرُونَ﴾ للدلالة على الشك في تأويلهم، ولذلك جاء الرد على لسان الملائكة بنفي العلم بالتأويل ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ والمعنى - والله تعالى أعلم - أن مثل هذه الرؤيا مما لا قبل لنا بمعرفة ما يؤول إليه أمرها في الواقع، فلذلك نفوا علمها عن أنفسهم، هذا ما بدا لي من خلال تتبع الاستعمال القرآني، والله تعالى أعلم بالصواب.

وقوله: ﴿أَضْغَاثٌ﴾: جمع ضِغْثٍ، وَالضِّغْثُ: قبضة رِيحَانٍ، أو حشيشٍ، قال تعالى ﴿وَوَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾^(٢)، وبه شبه الأحلام المختلطة التي لا يتبين حقائقها، وهي ما يكون من حديث النفس، أو وسوسة الشيطان، أو مزاج الإنسان^(٣).

سر التعبير عن الرؤيا بالجمع:

والتعبير عن الرؤيا بالجمع ﴿أَحْلَامٍ﴾ مع أنها رؤيا واحدة مبالغة في وصف الحلم بالبطلان، أو باعتبار متعلقاتها لأنها أشياء مختلفة مختلطة، أو لأن ذلك جائز لغة، كما يقولون: «فلان يركب الخيل» وإن لم يكن يركب إلا فرسا واحدا، وقد يكون الجمع باعتبار تعدد الأشياء المرئية في ذلك الحلم، فهي عدة رؤى^(٤).

(١) سورة يوسف: ٤٥.

(٢) سورة ص: ٤٤.

(٣) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ باب الضاد، فصل الضاد، والغين، المفردات (ضغث)، البحر المحيط ٢٨١/٦.

(٤) تفسير البيضاوي ١٦٥/٣، البحر المحيط ٢٨١/٦، التحرير والتنوير ٢٨٢/١٢.

تفسير قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(١).

القائل في الآية هو: ساقى الملك، وهو أحد أصحابي يوسف - عليه السلام-، وأما الآخر فقد قُتِلَ وُضِلِبَ كما صرَّحتْ به آياتُ السورة الكريمة^(٢).

معنى ﴿ وَادَّكَرَ ﴾ وأصلها:

وقوله: ﴿ وَادَّكَرَ ﴾: أصله: ادتكر، وهو افتعال من التكر، قلبت تاء الافتعال دالا لتقلها ولتقارب مخرجيهما ﴿ وَادَّكَرَ ﴾ ثم قلبت الدال ليتأتى إدغامها في الدال؛ لأن الدال أخف من الدال، وقرأ الحسن - أدكر - بإبدال التاء ذالا معجمة، وإدغام الدال المعجمة فيها، قال الألوسي: والقراءة الأولى أفصح، وقال ابن عاشور: هذا أفصح الإبدال في ادكر، وهو قراءة النبيء - ﷺ - في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾^(٣) كما في الصحيح^(٤)، والمعنى على كليهما: تدكَّر ما سبق له مع يوسف - عليه السلام -.

(١) سورة يوسف: ٤٥، ٤٦.

(٢) وذلك ما في قوله تعالى: ﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَضَيَّ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ الآية: ٤١ من سورة يوسف.

(٣) سورة القمر: ١٥.

(٤) روح المعاني ٤٤٢/٦، التحرير والتنوير ٢٨٣/١٢، إتحاف فضلاء البشر ص: ٣٣٢.

معنى الأمة والسر في التعبير بها:

والأُمَّة في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: الطائفة من الزمان والمدة الطويلة منه، قال الرازي: بعد أمة أي بعد حين، وقد علل للتسمية بالأمة بأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع ﴿وَأَدَّكَرَ﴾ العظيم فكأن الحين أمة من الأيام^(١).

وقال الطاهر: «وأصل إطلاق الأمة على المدة الطويلة هو أنها زمن ينقضى في مثله جيل، والجيل يسمى أمة، كما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) على قول من حمله على الصحابة»^(٣).

وعن سر اختيار لفظ أمة في هذا الموضع قال الألوسي: «وإطلاقه في هذه الآية مبالغة في زمن نسيان الساقى»^(٤).

وقد أورد المفسرون في لفظ ﴿أمة﴾ أقوالاً لم أر فائدة في إيرادها، ومطابقتها كتاب التفسير^(٥).

(١) مفاتيح الغيب ٤٦٤/١٨.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

(٣) مفاتيح الغيب ٤٦٤/١٨، التحرير والتنوير ٢٨٣/١٢.

(٤) روح المعاني ٤٤٢/٦.

(٥) فصل أبو حيان ما ورد في لفظ أمة من المعاني والقراءات في البحر ٢٨٤/٦، وينظر في ذلك أيضاً: تفسير ابن عطية ٢٤٩/٣، الكشاف ٤٧٥/٢.

ضمائر الجمع في الآية، ومرجعها:

وضمائر الجمع في قوله: ﴿أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ إما للملك على وجه التعظيم، وهو الذي اكتفى به ابن عاشور^(١)، بينما أصاب الرازي رحمه الله تعالى حين جعله للملك وللملأ الذي حوله^(٢).

وإنما كان قول الرازي أولى؛ لأنه جمع بين الرأيين حيث لا مانع، ولأن هذا هو الأليق بالسياق فقد قصَّ الملك رؤياه على الملأ وطلب منهم تعبيرها، وأشركهم في حل المشكلة، وهم مجتمعون في مجلسه فلا داعي لتخصيص الخطاب بالملك دونهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ إيجاز بالحذف^(٣) وتقديره: " فأرسلوه، فأتى يوسف، فقال له: يا يوسف، يا أيها الصديق^(٤)."

وصف يوسف بالصديق ودلالته:

﴿الصِّدِّيقُ﴾: بناء مبالغة، وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه، حيث جاء كما أوّل^(٥).

(١) التحرير التنوير ٢٨٣/١٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٤٦٤/١٨.

(٣) الإيجاز: وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها، وافية بالعرض المقصود، مع الإبانة والإفصاح، وإيجاز الحذف: ما حذف فيه شيء من أصل الكلام. والفرق بينه وبين إيجاز القصر أن إيجاز القصر يؤتى فيه بلفظ قليل، يؤدي معنى لفظ كثير، وإيجاز الحذف يترك فيه شيء من ألفاظ التركيب الواحد، مع إبقاء غيره بحاله، والمحذوف: إما جزء من جملة، أو جملة، أو أكثر. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ٥١٩/١، جواهر البلاغة، ص: ١٩٩.

(٤) جامع البيان ١٢٣/١٦.

(٥) البحر المحيط ٢٨٥/٦.

وغلِب استعمال وصف الصديق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى؛ لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين، قال الطاهر: وأحسن ما رأيت في هذا المعنى كلمة الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن قال: «الصدّيقون هم دُوَيْنُ الأنبياء». وهذا ما يشهد به استعمال القرآن في آيات كثيرة مثل قوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَأَمَّهُ صِدِّيقَةٌ﴾^(٢). ومنه ما لَقَّبَ النبيءُ - ﷺ - أبا بكر - بالصدّيق في قوله في حديث رَجَفَ جَبَلٌ أَحَدٌ «اسكن أحد فإنما عليك نبيء وصدّيق وشهيدان»^(٣).

السر في التعبير بحرف الترجي «لعل»:

واختار الزمخشري وأبو حيان في سر التعبير بحرف الترجي في قوله ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أن يكون المراد أنه خشي ألا يعود فاحترز بذلك، فيكون للترجي، وأما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فقد اختار فيه أن يكون للتعليل لرجوعه إليهم بتأويل الرؤيا، وقيل المعنى: لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبونك ويخلصونك من محنتك، فتكون لعل كالتعليل لقوله: أفنتنا^(٤).

(١) سورة النساء: ٦٩

(٢) سورة المائدة: ٧٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٢/٢٨٤، المفردات (صدق) والحديث في صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي - ﷺ - باب قول النبي - ﷺ: لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر، رقم: ٣٦٧٥.

(٤) الكشف ٢/٤٧٣، البحر المحيط ٦/٢٨٥.

قلت: ادعاء معنى التعليل في « لعل » مذهب بعض اللغويين كالكسائي والأخفش، لكن مذهب سيبويه والمحققين من اللغويين أنها للترجي، ذكر ذلك المرادي في الجنى الداني، وابن هشام في المغني^(١).

والترجي هو المعنى الذي حمل الرازي الآية عليه قال: لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضا^(٢).

قلت: إن كان مراد الإمام الرازي الخوف من عجز يوسف -عليه السلام- عن تأويل الرؤيا، فهو مردود لأنه قد جرب يوسف -عليه السلام- قبل ذلك وعلم صدق تعبيره للرؤيا فالشك فيه بعد تلك التجربة مردود، وأما خوفه من عجزه هو فمقبول.

وقد جعل صاحب المنار «لعل» في كلا الموضوعين للترجي، ورأى أن كلا موضعها يرميان لغاية واحدة، وهي الرجاء أن يتحقق ليوسف أمله في الخروج من السجن وانتقاع الملك وملائه به بسبب صدق تعبيره^(٣) وعدم تخلفه^(٤).

ولعل سر التعبير بحرف الترجي هنا لأن النفوس في مثل تلك الأمور تكون مترقبة للنتائج^(٥) غير جازمة بما تسفر عنه الأحداث حتى يتبين لها وجه الصواب فيها، فلما كانوا على مثل تلك الحال كان الأنسب التعبير

(١) الجنى الداني ص: ٥٨٠، مغني اللبيب ص: ٣٧٩، حروف المعاني والصفات لأبي القاسم الزجاجي ص: ٣٠.

(٢) الكشف ٤٧٣/٢، مفاتيح الغيب ٤٦٥/١٨.

(٣) روح المعاني ٤٤٢/٦.

(٤) تفسير المنار ٢٦٣/١٢.

(٥) روح المعاني ٤٤٢/٦.

بما يدل عليه من اللغة، وهو حرف الترجي (لعل) الذي من معانيه: التوقع، وهو الترجي في المحبوب والإشفاق من المكروه. تفسير قوله تعالى:

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴾^(١).

المراد بقوله: ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾:

وقوله: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ﴾ أي تستمرون في الزراعة على عادتكم المستمرة بلا توقف^(٢) أو توان، وذهب الزمخشري إلى أن ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾ خبر في معنى الأمر، كقوله - تعالى -: ﴿ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ ﴾^(٣) وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد الأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه، قال: والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿ فذروه ﴾^(٤).

وقد اعترضه أبو حيان بقوله «ولا يدل الأمر بتركه في سنبله على أن ﴿تزرعون﴾ في معنى ازرعوا، بل ﴿تزرعون﴾ إخبار غيب، وأمّا ﴿فذرّوه﴾ فهو أمر إشارة بما ينبغي أن يفعلوه، ونصره السمين بقوله: «هذا هو الظاهر، ولا مدخل لأمره لهم بالزراعة؛ لأنهم يزرعون على عادتهم-

(١) سورة يوسف: ٤٧ - ٤٩.

(٢) روح المعاني ٤٤٢/٦،

(٣) سورة الصف: ١١.

(٤) الكشاف: ٤٧٦/٢.

أمرهم أو لم يأمرهم-، وإنما يحتاج إلى الأمر فيما لم يكن من عادة الإنسان أن يفعلَه كترَكه في سُنبله^(١).

وهو ما ذهب إليه الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي وكذا الطاهر ابن عاشور^(٢).

قلت: قول الزمخشري بجعل المضارع بمعنى الأمر قد ورد عليه التنزيل في كثير من المواضع، تأكيداً للأمر، وإشعاراً بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، كما في قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾^(٣)، فقد قال الزمخشري في علة مجيء المضارع هنا بمعنى الأمر: «فَأَخْرَجُ الأَمْرَ فِي صُورَةِ الخَبَرِ تَأْكِيدُ الأَمْرِ وإشْعَارٌ بِأنَّهُ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يُتَلَقَّى بِالمُسَارَعَةِ إِلَى امْتِثَالِهِ، فَكَأَنَّهُنَّ امْتَثَلْنَ الأَمْرَ بِالتَّرْبُصِ، فَهُوَ يُخْبِرُ عَنْهُ، مَوْجُودًا، وَنَحْوَهُ قَوْلُهُمْ فِي الدُّعَاءِ: رَحِمَهُ اللهُ، أُخْرِجَ فِي صُورَةِ الخَبَرِ عَنِ اللهِ تَعَالَى بِالإِسْتِجَابَةِ، كَأَنَّمَا وَجِدَتِ الرَّحْمَةُ فَهُوَ يُخْبِرُ عَنْهَا»^(٤)، ومنه وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾^(٦)، ومجيء الخبر في معنى الأمر سواء كان مضارعاً، أم مصدرًا، أم غيره قد ورد كثيرا في القرآن الكريم، وفي

(١) البحر المحيط ٦/٢٨٥، الدر المصون ٦/٥٠٩.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (عناية القاضي وكفاية الرازي) ٥/١٨٣، التحرير والتنوير ١٢/٢٨٦.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٨.

(٤) الكشاف ١/٢٩٨.

(٥) سورة الصف: ١١.

(٦) سورة البقرة: ٢٣٣.

اللغة، وقد تعرض له العلماء كابن جني في الخصائص، وابن فارس في الصحابي، والبيضاوي في تفسيره، وأبو حيان في تفسيره، وغيرهم من العلماء.

معنى ﴿ دَابًّا ﴾ وإعرابه:

والدأب: التوالي والتتابع، وهو حال من المأمورين أي: دائبين، أو مصدر لفعل محذوف أي: تدأبون دأبا.^(١) قال الراغب: الدأب: العادة المستمرة دائما على حالة، قال تعالى: ﴿كَذَّابٍ آلٍ فِرْعَوْنَ﴾^(٢)، أي: كعادتهم التي يستمرّون عليها^(٣).

وقوله: ﴿فَدَّرَوْهُ فِي سُنْبِلِهِ﴾ معناه: اتركوا الزرع في السنبل إلا ما لا غنى عنه للأكل، فيجتمع الطعام، ويتركب، ويؤكل الأقدم فالأقدم، فإذا جاءت السنون الجذبة تقوّت الناس الأقدم فالأقدم من ذلك المدخّر^(٤).

والسر في إبقاء ما فصل عن أقاتهم في سنبله ليكون أسلم له من إصابة السوس الذي يصيب الحب إذا تراكم بعضه على بعض، فإذا كان في سنبله دفع عنه السوس^(٥).

ويطلق الأكل على الإفناء في قوله تعالى: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ كقوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾^(٦) وإسناده بهذا الإطلاق إلى

(١) تفسير البيضاوي ١٨٣/٥.

(٢) سورة آل عمران: ١١.

(٣) المفردات: (دأب).

(٤) المحرر الوجيز ٢٥٠/٣.

(٥) التحرير التنوير ٢٨٧/١٢.

(٦) سورة النساء: ٢.

السنين مجاز عقلي^(١)، لأنهن زمن وقوع الفناء، أي: يأكلُ أهلُهن كلَّ ما قدمتم لهم، وهو من إسنادهم إلى الزمان والذهر ما يقع فيه، ويكثر إسناد العسر والجوع إلى سني الجذب، يقال: أكلت لنا هذه السنة كلَّ شيء ولم تُبِق لنا خفا، ولا حافرا، أي: لا شعرا، ولا صوفا. وهذا تأويل للبقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السمان، وللسنبلات اليابسات^(٢).

ومعنى الإحصان في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾: الإحراز والادخار، أي: الوضع في الحصن، ولها معانٍ أخرى سيأتي الحديث عنها في المبحث الثاني إن شاء الله تعالى.

(١) المجاز العقلي: هو إسنادُ الفعل، أو ما في معناه (من اسم فاعل، أو اسم مفعول أو مصدر) إلى غير ما هو له في الظاهر، لعلاقةٍ مع قرينةٍ تمنعُ من أن يكون الإسناد إلى ما هو له، ويكون الإسناد إلى الزمان كما في الآية المذكور حيث أسند إليها الأكل، وإلى المكان كقوله تعالى ﴿وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾ فقد أسند الجري إلى الأنهار، وهي أمكنة للمياه، وليست جارية بل الجاري ماؤها، وإلى السبب، كقول الشاعر:

إني لمن معشر أفنى أوائلهم * قيلُ الكماة ألا أين المُحامونا؟

فقد نسب الافناء إلى قول الشجعان، هل من مبارز؟ وليس ذلك القول بفاعل له، ومؤثر فيه، وإنما هو سبب فقط والمصدر، كقول الشاعر:

سيدكرني قومي إذا جد جدهم * وفي الليلة الظلماء يفترق البدر

فقد أسند الجد إلى الجد، أي الاجتهاد، وهو ليس بفاعل له، بل فاعله الجاد فحذف الفاعل الأصلي وهو الجاد، وأسند الفعل إلى الجد، فهذه بعض علاقات المجاز العقلي، وبقيتها مستوفى في كتب البلاغة العربية، ينظر: الإيضاح ٨٢/١، جواهر البلاغة ص: ٢٥٥.

(٢) تفسير المنار: ٢٦٤/١٢.

معنى قوله تعالى: ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾:

والمراد بقوله تعالى ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يعطون الغيث، وهو المطر، كما قال الطاهر ابن عاشور، وقد ذهب الرازي إلى أن اللفظة أعم وأشمل من أن تكون قاصرة على نزول المطر، فقال: ويجوز أن يكون من قولهم: أغاثه الله إذا أنقذه من كرب أو غم، ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجذب وهو ما ذهب إليه صاحب المنار، حيث قال: يغيثهم الله - تعالى - من الشدة أتم الإغاثة وأوسعها، وهي تشمل جميع أنواع المعونة بعد الشدة، ومع ترجيحه للعموم إلا أنه وجه ما ذهب إليه ابن عاشور بأن الغيث - خصوصا في مصر - سبب جميع الخيرات والبركات^(١).

وعلى القول بأن الإغاثة بالمطر تكون الكلمة مشتقة من الغيث، وعلى قول من ذهب إلى العموم يكون اشتقاقها من الغوث، أشار إلى ذلك السمين^(٢).

والمعنيان متقاربان ويمكن الجمع بينهما بأن أحدهما مسبب عن الآخر فالغوث مسبب عن الغيث.

المراد بقوله: ﴿يُعْصِرُونَ﴾:

المتبادر من لفظها العموم في كل ما يمكن أن يُعْصَرَ، وهو أحد المعاني التي تدور عليها الحروف الثلاثة (ع ص ر) وهو: «صَغَطُ شَيْءٍ حَتَّى يَتَخَلَّبَ»، قال ابن فارس: «وَالْعَرَبُ تَجْعَلُ الْعُصَارَةَ وَالْمُعْتَصِرَ مَثَلًا لِلْخَيْرِ وَالْعَطَاءِ»^(٣)، وهو ما أشارت إليه عبارة الرازي حيث قال: أي يعصرون

(١) مفاتيح الغيب ١٨/٤٦٦، تفسير المنار: ١٢/٢٦٤، التحرير والتنوير ١٢/٢٨٨.

(٢) الدر المصون ٦/٥١٠.

(٣) مقاييس اللغة (عصر) وينظر مفردات الراغب، (عصر) لسان العرب باب الرء فصل العين ٤/٥٧٧.

السمسم دهنًا، والعنب خمرا، والزيتون زيتا، وقيل: يحلبون الصروع، وقرئ (يُعَصْرُونَ)^(١) من عصره إذا نجاه، وقيل: معناه يُمطرون من أعصرت السحابة إذا أعصرت بالمطر^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾^(٣).

تفسير قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ* قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم﴾^(٤)

الظاهر أن المراد بالملك هنا هو الريان بن الوليد صاحب الرؤيا، وليس العزيز، وهو ما رجحه الرازي رحمه الله لوجهين: الأول: أَنَّ قَوْلَ يُوسُفَ: اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ يَدُلُّ عَلَيْهِ. الثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُ: أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا كَانَ خَالِصًا لَهُ، وَقَدْ كَانَ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَبْلَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلْعَزِيزِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ هُوَ الْمَلِكُ الْأَكْبَرُ^(٥).

قلت: والسياق يقتضي ذلك أيضا؛ كي يكون السياق متفقا غير مختلف، فقد جرى ذكر الملك في سياق الآيات القريب عند قوله تعالى: ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان﴾، ثم قال الله تعالى هنا: ﴿وقال

(١) البحر المحيط ٢٨٦/٦، وقال البنا في الإتحاف ص: ٣٣٢: «واختلف في ﴿يُعَصْرُونَ﴾

فحمزة والكسائي وخلف بالخطاب، ووافقهم الأعمش، والباقون بالغيب».

(٢) المحرر الوجيز ٢٥١/٣، مفاتيح الغيب ١٨ / ٤٦٦.

(٣) سورة النبأ: ١٤.

(٤) سورة يوسف: ٥٧، ٥٤.

(٥) مفاتيح الغيب ١٨ / ٤٧١.

الملك اثتوني به ﴿ والقول بأنه العزيز يقتضي اختلاف الكلام وهذا مناف لبلاغة القرآن ومؤدّ لتنافر الكلام، ثم إن القاعدة أن المعرفة اذا أعيدت معرفة كانت الثانية عين الأولى^(١).

والمراد بقوله ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾: أَجْعَلُهُ خَالِصًا لِي دُونَ غَيْرِي، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلْعَزِيزِ، وَالْإِسْتِخْلَاصُ: طَلَبُ خُلُوصِ الشَّيْءِ مِنْ شَوَائِبِ الشَّرِكَةِ، قَالَ ذَلِكَ لَمَّا كَانَ يُوسُفُ نَفِيسًا، وَعَادَةُ الْمُلُوكِ أَنْ يَجْعَلُوا الْأَشْيَاءَ النَّفِيسَةَ خَالِصَةً لَهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ^(٢).

وفي الآية إيجاز بالحذف على ما أشار إليه الألوسي، والشوكانى، وابن عاشور، والتقدير: فأتوه به، أي بيوسف-عليه السلام- فحضر لديه، وكلمه فلما كلمه. . . ، والسر في ذلك: الإيذان بسرعة الإتيان فكأنه لم يكن بينه وبين الأمر بإحضاره -عليه السلام- والخطاب معه زمان أصلا^(٣).

والمقصود من جملة: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ كما يراه ابن عطية: إفادة أن يوسف-عليه السلام- كلم الملك كلاما أعجب بما فيه من حكمة وأدب، ورأى من كلامه وحسن منطقته ما صدق به الخبر، أو أربى عليه؛ إذ المرء

(١) تفسير النسفي ٣٤٦/٤.

(٢) فتح القدير ٤٢/٣.

(٣) روح المعاني ٦/٧، فتح القدير ٤٢/٣، التحرير والتنوير ٧/١٣.

مخبوء تحت لسانه، ثم لما زاول الأعمال مشى القُدُمِيَّة^(١) حتى ولاه خطة العزيز^(٢).

وقوله: ﴿مَكِينٌ﴾: صفة مشبهة^(٣) من مَكُنْ - بضم الكاف - إذا صار ذا مكانة، وهي المرتبة العظيمة، وهي مشتقة من المكان.

وقوله: ﴿أَمِينٌ﴾: فعيل بمعنى مفعول، أي مأمون على شيء، أي موثوق به في حفظه. وهذه صيغة تولية جامعة لكل ما يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال، لأن المكانة تقتضي العلم والقدرة إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير، والأمانة تستدعي الحكمة، والعدالة؛ إذ بالحكمة يوتر الأفعال الصالحة، ويترك الشهوات الباطلة، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها. وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمور مملكته، وبأن يقترح عليه ما يرجو من خير^(٤).

(١) مشى القُدُمِيَّة، أي تقدم في الشرف والفضل، ولم يتأخر عن غيره في الإفضال على الناس. تاج العروس (ق د م).

(٢) المحرر الوجيز ٢٥٥/٣، وينظر: التحرير والتنوير ٧/١٣.

(٣) الصفة المشبهة: اسم مشتق؛ يدل على ثبوت صفة لصاحبها ثبوتاً عاماً، وهي تدل على معنى مجرد "أي: على وصف، أو: صفة"، وعلى صاحبه الموصوف به، وعلى ثبوت ذلك المعنى له وتحققه ثبوتاً زمنياً عاماً، "ويشمل الماضي والحاضر، والمستقبل"، وعلى دوام الملازمة، أو ما يشبه الدوام، والناطق بها إنما يريد الأمور الأربعة مجتمعة، إن كان خبيراً باللغة، وبدلالة الألفاظ فيها، ينظر النحو الوافي ٢٨٣/٣.

قلت: وهي في الآية من النوع "الأصيل"، وهو المشتق الذي يصاغ من مصدر الفعل الثلاثي، اللازم، المتصرف؛ ليدل على ثبوت صفة لصاحبها ثبوتاً عاماً، فهي تدل على ثبوت ودوام تلك المعاني المذكورة لسيدنا يوسف عليه السلام ثبوتاً لازماً لا يقبل التحول ولا التغيير، ولا ريب فهو نبي معصوم.

(٤) التحرير والتنوير ٧/١٣.

ومعنى ﴿خزائن الأرض﴾: جمع خزانة- بكسر الخاء- أي: البيت الذي يختزن فيه الحبوب، والأموال، والتعريف في الأرض تعريف العهد، وهي الأرض المعهودة لهم، أي: أرض مصر.

وقوله: ﴿إني حفيظ عليم﴾: تعليل لطلبه أن يجعل على خزائن الأرض، وهو مستفاد من جعل (إن) في صدر الجملة فإنه علم أنه أتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بله كليتهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولاه، ليعلم الملك أن مكانته لديه وأتمانه إياه قد صادقا محلهما وأهلها، وأنه حقيق بهما لأنه متصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقق للإيمان، وصفة العلم المحقق للمكانة. وفي هذا تعريف بفضل ليهتدي الناس إلى اتباعه وهذا من قبيل الحسبة^(١).

هل في الآية ما يجيز طلب تولي الولايات؟

قال الماوردي رحمه الله: « وفي هذا دليل على جواز أن يخطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً، وهو بحقوقه وشروطه قائم. فيما حكى ابن سيرين عن أبي هريرة قال: نزعني عمر بن الخطاب عن عمل البحرين ثم دعاني إليها فأبيت، فقال: لم؟ وقد سأل يوسف العمل^(٢). »

وقد أجاب الإمام الشوكاني عن الهدف من طلب سيدنا يوسف -عليه السلام- تولى أمر الخزائن في مصر بأن الحكمة من وراء ذلك الطلب ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم، ويتوصل به إلى دعاء أهل مضر إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأوثان، قال: وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق،

(١) التحرير والتنوير ٩/١٣.

(٢) النكت والعيون ٥٠/٣، ٥١.

وَيَهْدِمَ مَا أَمَكَّنَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، طَلَبُ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ، وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَصِفَ نَفْسَهُ بِالْأَوْصَافِ الَّتِي لَهَا تَرْغِيْبًا فِيمَا يَرُومُهُ، وَتَنْشِيْطًا لِمَنْ يُخَاطِبُهُ مِنَ الْمُلُوكِ بِإِلْقَاءِ مَقَالِيدِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ وَجَعَلَهَا مَنُوطَةً بِهِ^(١). وقد ذكر ابن عطية نحواً من كلام القرطبي رحمه الله^(٢).

هل هذا يتعارض مع النهي عن طلب الولايات الوارد في السنة؟

يرى الإمام الشوكاني أنه يتعارض مع هذا النهي، قال: « ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي ها ترغيباً فيما يرومه، وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه، وجعلها منوطة به، ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا - ﷺ - من النهي عن طلب الولاية، والمنع من تولية من طلبها، أو حرص عليها^(٣) .

بينما يرى ابن عاشور أن لا تعارض بين الآية والحديث حيث قال موضعاً: « وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ لَوْجُوبِ عَرْضِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لَوْلَايَةِ عَمَلٍ مِنْ أُمُورِ الْأُمَّةِ إِذَا عِلِمَ أَنَّه لَا يَصْلُحُ لَهُ غَيْرُهُ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ النَّصْحِ لِلْأُمَّةِ، وَخَاصَّةً إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يُنْتَهَمُ عَلَى إِيْتَارِ مَنْفَعَةٍ نَفْسِهِ عَلَى مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ. وَقَدْ عِلِمَ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ أَفْضَلُ النَّاسِ هُنَالِكَ لِأَنَّهُ كَانَ الْمُؤْمِنَ الْوَحِيدَ فِي ذَلِكَ الْقَطْرِ، فَهُوَ لِإِيْمَانِهِ بِاللَّهِ يَبْتُ أَصُولَ الْفَضَائِلِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا شَرِيْعَةُ آبَائِهِ إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - . فَلَا يُعَارِضُ هَذَا مَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمْرَةَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَا تَسْأَلِ

(١) فتح القدير ٤٣/٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٢٥٥/٣

(٣) فتح القدير ٤٣/٣ .

الإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِن أُعْطِيتَهَا عَن مَسْأَلَةٍ وُكِلتَ إِلَيْهَا وَإِن أُعْطِيتَهَا عَن غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنتْ عَلَيْهَا»^(١)؛ لِأَنَّ عبد الرحمن بَن سَمْرَةَ لَمْ يَكُنْ مُنْقَرِدًا بِالْفَضْلِ مِنْ بَيْنِ أَمْثَالِهِ وَلَا رَاجِحًا عَلَى جَمِيعِهِمْ، ثم قال: وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَخَذَ فُقَهَاءُ الْمَذْهَبِ جَوَازَ طَلَبِ الْقَضَاءِ لِمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَهْلٌ وَأَنَّهُ إِن لَمْ يُؤَلَّ ضَاعَتِ الْحُقُوقُ»^(٢).

حكم توَلَّى الولايات للكافر أو الظالم:

قال ابن عطية رحمه الله تعالى: « قال بعض أهل التأويل: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فصل ما لا يعارض فيه، فيصلح منه ما شاء وأما إن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهوته وفجوره، فلا يجوز له ذلك، وطلبه يوسف للعمل إنما هي حسبة منه - عليه السلام - لرغبته في أن يقع العدل، ونحو هذا دخول أبي بكر الصديق في الخلافة مع نهيه المستشار من الأنصار عن أن يتأمر على اثنين فجائز للفاضل أن يعمل وأن يطلب العمل إذا رأى ألا عوض منه، وجائز أيضا للمرء أن يثني على نفسه بالحق إذا جهل أمره»^(٣).

وقد فصل الإمام الماوردي الكلام في هذه المسألة فقال: « فإن كان

المولي ظالماً فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين:

(١) الحديث في صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، رقم: ١٢٥٦، وهو أيضا في صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها، رقم: ٧١٤٦.

(٢) التحرير والتنوير ٩/١٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٢٥٥، ٢٥٦.

أحدهما: جوازها إن عمل بالحق فيما تقلده، لأن يوسف - عليه السلام - ولي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره.
الثاني: لا يجوز ذلك له لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم وتزكيتهم بتنفيذ أعمالهم.

وأجاب من ذهب إلى هذا القول عن ولايته من قبل فرعون بجوابين: أحدهما: أن فرعون يوسف كان صالحاً، وإنما الطاغي فرعون موسى. الثاني: أنه نظر له في أملاكه دون أعماله فزالته عنه التبعة فيه. قال: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يُفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات فيجوز توليته من جهة الظالمين؛ لأن النص على متسحيه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التنفيذ.
والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفردوا به، ويلزم الاجتهاد في مصرفه، كأموال الفياء فلا يجوز توليته من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق ويجتهد فيما لا يستحق.

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه أهله وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد فيه محلول، فإن كان النظر تنفيذاً لحكم بين متراضيين أو توسطاً بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز^(١).

(١) النكت والعيون ٣/٥٠، ٥١.

المبحث الثاني

الركائز التي اعتمد عليها سيدنا يوسف في حل المشكلة الاقتصادية

وفيه تمهيد ومطلبان:

تمهيد:

إن ما فعله سيدنا يوسف -عليه السلام- هو ما يطلق عليه في العصر الحديث «مبادرة اقتصادية»، ويقصد بها من خلال فهمنا لما ورد في الآيات: اتخاذ التدابير اللازمة لإنقاذ اقتصاد الدولة مما يعوق تقدمه من مشكلات، حالية، أو مستقبلية.

وقد كانت مبادرة سيدنا يوسف -عليه السلام- من أنجح المبادرات الاقتصادية في العالم قديما وحديثا؛ فقد جمعت - على وَجَاةٍ عرض القرآن لها- كلَّ أساسيات علم الاقتصاد الحديث، وارتكزت على أسس علمية قوية مدروسة بعناية بالغة، وجمعت إلى بُعْدِ النظر واستشراف المستقبل وفقه الحاضر واستيعاب الماضي = خبرةً عاليةً بشؤون الحياة والمجتمعات، وطبيعة العمران، ومعرفةً بطبائع الزمن وسنن الكون، وقيما أخلاقية راقية، ومبادئ إنسانية عالية، مما يجعلها - بحق - نموذجا رائدا للمبادرات الاقتصادية الناجحة.

وقد تعرض الكاتب الأمريكي الشهير ستيفين آر كوفي^(١) لهذه المبادرة وجعلها مثالا يحتذى لمن أراد النجاح في الحياة، وذلك في كتابه: العادات السبع للناس الأكثر فعالية، عند حديثه عن المبادرة، فقال: «وواحدة من أفضل القصص: قصة سيدنا يوسف -عليه السلام- الذي بيع كعبد، وبالطبع كان من السهل عليه الوقوع في جب الشفقة على النفس والتركيز على نقاط ضعف أشقائه الذين تسببوا له في هذه المحنة، وعلى نقاط ضعف سيده وكل شيء آخر لم يمتلكه، ولكن سيدنا يوسف -عليه السلام- كان مبادرا وخلال فترة زمنية وجيزة كان يدير منزل العزيز بل أضحى مسؤولا عن جميع ممتلكاته لأن ثقته بسيدنا يوسف كانت عالية، ثم تعرض سيدنا يوسف لمحنته الشهيرة ورفض المساومة على مبادئه، ونتيجة لموقفه هذا أُلقي في غياهب السجن ظلما، ولكنه كان مبادرا رغم المحنة، وسرعان ما أصبح هو من يدير السجن، ثم لاحقا مصرَ بأسرها»^(٢).

وهذه الشهادة لا تزيدنا ثقة في سيدنا يوسف -عليه السلام- ولكنها تحليل جيد لشخصيته -عليه السلام- وإثبات أنه ما استطاع أن يحقق هذه المنزلة الكريمة العالية إلا لامتلاكه حس المبادرة وتركيزه على نقاط القوة

١- ستيفين آر كوفي: كاتب ومؤلف أمريكي متخصص في الإدارة، والتنمية البشرية، وقد ألف العديد من المؤلفات في هذا الاتجاه، منها: العادات السبع للناس الأكثر فعالية، العادات السبع للأسر الأكثر فعالية، القيادة المرتكزة على مبادئ، العادات السبع للإقدام على التغيير بشجاعة، وغيرها، وهو حاصل على جائزة السلام الدولي، وغيرها من الجوائز العديدة، وأحد مؤسسي مركز فرانكلين كوفي بالولايات المتحدة الأمريكية.

٢- العادات السبع للناس الأكثر فعالية ستيفين آر كوفي ص ١٠٨، ١٠٩.

في نفسه وامتلاكه زمام شخصيته وعدم السماح للظروف ولا للأشخاص بالتأثير السلبي على حياته، وهذا كله يأتي بعد توفيق الله تعالى له، وتدلنا كذلك على إلهام شخصية يوسف -عليه السلام- لكثير من الكتاب والمفكرين سواء في ذلك المسلمون وغير المسلمين، والفضل ما شهدت به الأعداء.

هذا إجمال يعقبه تفصيل لأسس هذه المبادرة في القرآن الكريم وركائزها التي ارتكزت عليها، والمحاور التي دارت حولها، استقاها البحث من الوقوف مع الآيات، ومن كلام المفسرين، والمحللين الاقتصاديين، والغرض من هذا بيان أن المبادرات الحقيقية هي التي تبنى على أسس قوية سليمة وتكون بعيدة عن العشوائية والارتجال.

وقبل الشروع في بيان الركائز والأسس التي اعتمدت عليها مبادرة يوسف -عليه السلام- يحسن أن نعرف بالمقصود بالمشكلة الاقتصادية، من منظور المذاهب الاقتصادية المختلفة، ثم من المنظور الإسلامي، لكي نعرف مقدار ما بذله يوسف عليه السلام من أجل إنقاذ مصر من أزمة طاحنة كادت أن تودي بها.

تعريف المشكلة الاقتصادية:

المشكلة الاقتصادية هي: «تعدد الحاجات مع ندرة الموارد»، وبعبارة

أخرى مبسطة هي «مشكلة الفقر» الذي لا يعدو كونه مظهرا من مظاهر زيادة الحاجات مع قلة الموارد. ومردُّ المشكلة في النظام الاقتصادي الإسلامي⁽¹⁾ ليس قلة الموارد، كما ذهب الاقتصاد الرأسمالي⁽¹⁾، كما أنه

١- من الجدير بالذكر هنا أن ننوه ببعض المميزات الكبيرة التي يتسم بها الاقتصاد الإسلامي والتي من أهمها أنه العدل الوسط بين النظامين السابقين، أو بتعبير أدق: هو نظام قائم بذاته، له فكره الاجتماعي الخاص به، فهو يعترف بقيمة =

ليس سببها هم الأغنياء أو التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات التوزيع، كما ذهب الاقتصاد الاشتراكي^(٢). وإنما تتمثل في أمرين: أولهما: مشكلة القصور في استغلال الموارد الطبيعية لا قلة هذه الموارد، فهي كثيرة ومتنوعة، وقد أودع الله في الأرض كل ما يحتاجه الإنسان، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٣).

ثانيهما: مشكلة أثره الأغنياء وسوء التوزيع، لا الملكية الخاصة ذاتها، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْعَمُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ

=الإنسان، كما يعترف بحقوق المجتمع، فيقيم توازناً بينهما، بل إنه جعل الفرد للجماعة، والجماعة للفرد عن طريق التضامن العام بين الأفراد، فهو إذن ليس فردياً فقط يؤدي إلى الرأسمالية، وليس جماعياً يؤدي إلى الاشتراكية، وإنما يمنح الفرد قدراً من الحرية بحيث لا يطغى على كيان الآخرين، ويمنح المجتمع أو الدولة التي تمثله سلطة واسعة في تنظيم الروابط الاجتماعية والاقتصادية على أساس من الحب المتبادل بين الفرد والجماعة، لا على أساس الحقد وإيجاد العدوات بين الناس. ينظر: الفقه الإسلامي وأدلته. د/ وهبة الزحيلي (٦/ ٤٥٧٦)

١- الرأسمالية: نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية، يقوم على أساس إشباع حاجات الإنسان الضرورية والكمالية، وتنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعاً في مفهوم الحرية، معتمداً على سياسة فصل الدين نهائياً عن الحياة. ولقد ذاق العلم بسببه ويلات كثيرة نتيجة إصراره على كون المنفعة واللذة هما أقصى ما يمكن تحقيقه من السعادة للإنسان. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني (٢/ ٩١٠)

٢- الاشتراكية: حركة ظهرت في القرن التاسع عشر تدعو إلى إلغاء الملكية الفردية وإلى نيل التقاليد والأعراف، وشيوعية الأموال والنساء بين الجميع. ينظر: المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، د/غالب بن علي عواجي (٢/ ١٠٢٥)

٣- إبراهيم: ٣٤.

اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١﴾.

فمشكلة الفقر في التشخيص الإسلامي، مردها الإنسان نفسه وفساد نظامه الاقتصادي سواء من حيث ضعف الإنتاج أو سوء التوزيع. وقد رتب الإسلام على ذلك ضرورة تنمية الإنتاج مع عدالة التوزيع، وأن أحدهما لا يغني عن الآخر، فوفره الإنتاج مع سوء التوزيع هو احتكار واستغلال لا يسلم به الإسلام، كما أن عدالة التوزيع دون إنتاج كاف هو توزيع للفقر والبؤس وهو ما يرفضه الإسلام^(٢).

وقد كانت مبادرة سيدنا يوسف -عليه السلام- لحل تلك المشكلة مبادرة منظمة مدروسة، وليست ارتجالية عشوائية، وذلك لأن القائم بها نبي من أنبياء الله تعالى مؤيد بالوحي من السماء، فلا مدخل فيها للتخبط ولا للارتجال.

ومن خلال التأمل والوقوف مع الآيات في القسم التحليلي استطاع البحث أن يستخلص مجموعة من المرتكزات التي بنيت عليها تلك المبادرة النبوية الكريمة، من سيدنا يوسف -عليه السلام-، وقد تم تقسيم تلك المرتكزات والأسس إلى قسمين جاءت في مطلبين:

١- يس: ٤٧.

٢- الإسلام والتوازن الاقتصادي بين الأفراد والدول، ص: ٤٦.

المطلب الأول: الأسس العلمية والعملية

ويقصد بها الأسس التي تقوم على إعمال العقل وتسخير العلم في حل المشكلات، وجعل نظريات العلم واقعا ملموسا مسخرا لخدمة الحياة والأحياء، وقد ظهر ذلك جليا في الأسس التالية:

أولا: أنها بنيت على أساس من وضوح الرؤية والتخطيط المحكم.

لقد اجتمعت في مبادرة سيدنا يوسف -عليه السلام- كل عناصر الخطة الاقتصادية المحكمة كما أقرها علم الاقتصاد الحديث، فسجل القرآن بذلك سبقا مطلقا لكل الأنظمة الاقتصادية الحديثة، فالتخطيط بمعناه الحديث الذي هو: « أسلوب أو منهج يقوم على تجنيد كافة طاقات المجتمع وموارده المتاحة بغية تحقيق أهدافه بأقل تكاليف ممكنة وذلك من خلال فترة زمنية معينة» والذي يطلق عليه التخطيط الاستراتيجي، والذي تتضح فيه الرؤية والأهداف اتضاحا تاما، كان ماثلا وواضحا في عقل سيدنا يوسف - عليه السلام- كذلك مراحل هذا التخطيط، وعناصره، وأنواعه، وآليات تنفيذه كل ذلك وغيره مما يتصل بعلم التخطيط كان موجودا في مبادرة يوسف الاقتصادية^(١).

وآجال التخطيط المعروفة في الفكر الاقتصادي حالياً ثلاثة، أولها التخطيط طويل الأمد ويمتد لفترة زمنية من: ١٥ : ٢٠ سنة، وفيه تتحدد الأهداف الرئيسية لنمو الاقتصاد.

١- ينظر في تعريف التخطيط وما يتصل به: التخطيط والتنمية في الإسلام: د/عبد الحفيظ عبد الرحيم، ص١١، ١٢ لتفكير والتخطيط الاستراتيجي كيف تربط بين الحاضر والمستقبل. د/محمد عبد الغني حسن هلال، المنهج الاقتصادي في التخطيط لنبي الله يوسف عليه السلام. د/نواف بن صالح الحليسي.

والثاني التخطيط المتوسط المدى وفترته من: ٥ : ٧ سنوات، وهو يمثل مرحلة من مراحل تنفيذ التخطيط الطويل الأجل في صورة خطط مرحلية متتابعة لتنمية الاقتصاد تكمل بعضها البعض في سبيل تحقيق الأهداف الطويلة الأجل المحددة في الخطة الطويلة المدى.

أما الأجل الثالث فهو الأجل القصير وهو يتمثل في الخطط السنوية التي تنفذ من خلالها الخطط المتوسطة وتتحقق عن طريقها أهدافها. وهذه الخطط التنموية الطويلة الأجل قد ذكرها القرآن الكريم في قصة يوسف -عليه السلام- التي استغرقت خمسة عشرة سنة وأجزها دون كلل في هذا الأفق الزمني الطويل نسبياً بصبر وأناة^(١).

وهذا يعكس لنا أهمية وضوح الرؤية لدى الخبراء والمتصددين لوضع المبادرات الاقتصادية، وأن اتباع منهج واضح محكم في التخطيط يؤدي في الغالب إلى التغلب على المشكلات، يقول الدكتور الزحيلي: « وقد استفيد من فعل يوسف سلامة الخطة ونجاح سياسة التخطيط»^(٢).

وما كان لمصر أن تتجاوز محنتها لولا ما وضعه يوسف -عليه السلام- من خطط محكمة تجلت في التحديد الدقيق للفترة التي تستغرقها كل مرحلة، مما قادها في النهاية إلى تجنب ويلات المجاعات والوصول بالناس إلى شاطئ الأمان والرخاء.

ثانياً: أنها بنيت على أساس من العمل الدؤوب المتواصل.

وهو من أهم الوسائل والأسس التي تبني عليها الأمم مبادراتها لحلول الأزمات والمشكلات، وقد ظهر ذلك واضحاً جلياً في قوله تعالى على

١ - التخطيط والتنمية في الإسلام: د. - عبد الحفيظ عبد الرحيم، ص ١١.

٢ - التفسير المنير (١٢ / ٢٧٩).

لسان يوسف - عليه السلام-: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ﴾^(١)، أي متواصلة بلا انقطاع، فالدأب: استمرار الشيء على حالة واحدة وهو دأب يفعل كذا إذا استمر في فعله، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ ﴾^(٢)، ومن معاني الدأب أيضا: العادة المستمرة دائما على حالة، قال تعالى: ﴿ كَذَّابٍ آلٍ فِرْعَوْنَ ﴾^(٣)، أي كعادتهم التي يستمرون عليها، ومن معاني الدأب أيضا: الجد والتعب^(٤).

وهذه المعاني مما يمكن اعتبارها في معني الآية، والمعنى الحاصل من هذه المعاني يفيد ضرورة استمرارهم على ما تعودوه من مهنة الزراعة التي كانت عماد اقتصادهم وعدم الركون إلى الدعة والراحة، بل عليهم أن يبذلوا أقصى جهدهم في العمل وأن يتعبوا اليوم ليستريحوا غدا. ونعمت هذه النصيحة من الكريم بن الكريم - عليه السلام-، فما نصح مخلص قومه - في مثل تلك الظروف- بمثل العمل، والجد المتواصل من أجل البقاء في وضع اقتصادي أفضل؛ فالدول التي تقدر العمل وتحترمه ينمو اقتصادها ويزدهر، وتحيا الشعوب فيها حياة رغدة سعيدة مستقرة. لقد أرشدنا سيدنا يوسف - عليه السلام- إلى ضرورة مواصلة العمل الجاد الدؤوب من أجل تحقيق أكبر قدر من الناتج يكفي لسد حاجة الناس في

١- سورة يوسف من الآية: ٤٧.

٢- سورة إبراهيم من الآية: ٣٣.

٣- جزء من الآيتين: ٥٢، ٥٤ من سورة الأنفال، وجزء من الآية: ١١ من سورة آل عمران.

٤- المفردات في غريب القرآن ص ٣٢١، تفسير الرازي: ٤٦٥/١٨، تفسير الخازن: ٥٣٢/٢، حقائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١٣/ ٤٣٤).

سنين الشدة، حتى إذا أطلت كان لدى الدولة من المخزون ما يكفي حاجة الناس في سني الجذب، وإذا تقرر أن سنين الجذب سبع سنين كما في الآيات فإن تلك السنوات تحتاج إلى عمل كثير من أجل توفير ما يكفي تلك المدة الطويلة.

ويعتبر العمل أعظم أركان الإنتاج في أية مبادرة أو عملية اقتصادية، فالعوامل التي تشترك في الإنتاج أربعة: [الأرض، والعمل، ورأس المال، والتنظيم]، ولكن أهم هذه العوامل اثنان: [الأرض، والعمل]، فهما المحور الرئيسي لأية عملية إنتاجية^(١).

وبنظرة متأملة للدول المتقدمة في العالم والتي تقدر العمل وتحترمه نجدها أوفر دخلا وأكثر استقرارا، وأنفذ قرارا، وذلك لاعتمادها على قوتها الاقتصادية التي اكتسبتها من العمل واحترامه، وأما الدول التي لا تحترم العمل ولا تقدره فإنها تأتي في مؤخرة طابور البشر فلا قيمة لها، ولا وزن لها، ولا يُسمع لها صوت وسط ضجيج الآلات وهدير المصانع التي ترتقي بها الأمم العاملة يوما بعد يوم في الوقت الذي يتخلف فيه الكسالى النائمون، ولعل في هذا المعنى صيحة تحذير لبلادنا وأمتنا التي أنزل فيها هذا الكتاب الخالد الذي يحض على العمل ويحترم العاملين.

وما بنا من حاجة إلى التذكير بفضل العمل وشرف العاملين كما ورد في الشرع الشريف، لشهرة ذلك ووضوحه عند الخاصة والعامة، إنما نريد التأكيد في هذا المقام على أن العمل هو الركيزة الأساسية لأية مبادرة اقتصادية جادة فلا بد منه لتحقيق التقدم والنمو لأية دولة، وأما الاعتماد على الشعارات الجوفاء، والألفاظ الرنانة والتصريحات الكاذبة، فلا يقيم

١- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ص ١٣٨.

ديناً ولا يُصلح دنيا، وستظل الدول التي تفضل الكلام على العمل ضائعة تائهة محتقرة بين بقية الدول حتى تعود إلى صفوف العاملين.

ثالثاً: أنها بنيت على أساس من المعرفة بفقهِ الأولويات والمآلات.

أما فقهِ الأولويات أو فقهِ الموازنات، فالمقصود به الفقهِ بمراتب الأعمال حيث يفاضل بين الأعمال من حيث أُولى بالتقديم على غيرها، فلا يقدم ما حقه التأخير، ولا يؤخر ما حقه التقديم.

وقد جعل الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أصلاً أصيلاً من أصول السياسة الشرعية ورعاية مصالح الناس وخاصة في أوقات الأزمات قال: « هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئاً منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله - عز وجل - ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه، ولا استحقاق، هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين»^(١)

وقد كان سيدنا يوسف - عليه السلام - في مبادرته عند حسن الظن به فراعى كل ما سبق وقام بما ينبغي عليه تجاه الأزمة فأرشدهم إلى ما ينقذهم من شدة، بترتيب الأمور حسب حجمها وموضعها، ثم مراعاة المصالح الوقتية والمستقبلية.

١ - تفسير القرطبي (٩/ ٢٠٣).

ويؤخذ من الاستثناء قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ مراعاة فقه الأولويات؛ حيث جعل الأولوية في الآية الكريم للادخار وليس للاستهلاك، فأمرهم بتخزين الطعام كله ثم استثنى جزءا يسيرا منه للأكل وأبقى الجزء الأكبر في المخازن والصوامع، وهذا من الفقه بالوقت والظرف، فالأولوية حينئذ للادخار تحسبا لأيام الشدة المقبلة، فالمبادرة الاقتصادية الناجحة هي التي يحدث فيها توازن بين الإنتاج والاستهلاك ويكون تنظيم هذين الأمرين على حسب الواقع والظروف المتوقعة^(١).

وقد لمح الطاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى ملمحا آخر في الآية؛ إذ رأى أن في الآية معنى آخر زائدا على الادخار وهو أنه ليس المراد مجرد الادخار العادي، بل المراد الاستكثار من الاحتياطي بقدر الطاقة وهذا من حسن الاستعداد لتلك الشدة التي ستلتهم كل المدخر لها ولذلك فمن المستحسن أن يزداد في قدر هذا المدخر بقدر الطاقة تحسبا لتلك الظروف، قال: «وَالْمَعْنَى: أَنَّ تِلْكَ السِّنِينَ الْمُجْدِبَةَ يَفْنَى فِيهَا مَا أُدْخِرَ لَهَا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُ يَبْقَى فِي الْأَهْرَاءِ^(٢) وَهَذَا تَحْرِيسٌ عَلَى اسْتِكْثَارِ الْإِدْخَارِ^(٣)».

وفي قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ توجيه للشعوب إلى اتباع سلوكيات من شأنها أن تساهم في إصلاح الحالة الاقتصادية للبلاد وذلك باتباع نظام معيشي خاص يسمح بمواجهة الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد

١- تفسير المنار (١٢/٢٦٣).

٢- الهري، بالصم وكسر الراء وتشديد الياء: بئت كبير يجمع فيه طعام السلطان، جمعه: أهراء. تاج العروس (هري).

٣- التحرير والتتوير ١٢/٢٨٦.

وعدم إهدار الاحتياطي المدخر الذي تعتمد عليه الدولة، بل لا يستهلك إلا ما إليه الاحتياج ويبقى الفائض محفوظاً لوقت الاحتياج إليه، وهذا هو الأسلوب الأمثل في استغلال الموارد والتعامل مع الاحتياطي الاستراتيجي للدولة، أما العشوائية والإسراف فمن شأنه أن يستنفد المخزون بسرعة ثم يترك الشعوب في حاجة وعوز في وقت الشدائد والأزمات.

وأما فقه المآلات فقد ظهر واضحاً في إخبار نبي الله يوسف عليه السلام بانجلاء الأزمة وعودة الحياة إلى طبيعتها، وذلك لمعرفته بترتب المسببات على أسبابها، فاجتهاد الناس وعملهم الدؤوب ومواصلتهم الإنتاج تحسباً لأيام الشدة من طبيعته أن يفضي إلى تقادى الأزمة وانجلاتها، والنجاة منها، ولذلك أمرهم يوسف -عليه السلام- باتخاذ ما يلزم من التدابير أخذاً بالأسباب، ثم أخبرهم بوقوع المسبب المترتب على السبب

وقد تحدث الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات عن أهمية اعتبار مآلات الأمور، فقال: «النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً كانت الأفعال موافقةً أو مخالفةً، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعاً لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ.... ومصالح العباد إما دنيوية، وإما أخروية، أما الأخروية فراجعة إلى مآل المكلف في الآخرة ليكون من أهل النعيم لا من أهل الجحيم، وأما الدنيوية فإن الأعمال إذا تأملتها مقدماتٍ لنتائج المصالح فإنها أسباب لمسببات هي مقصودة للشارع والمسببات هي مآلات الأسباب فاعتبارها في جريان الأسباب مطلوب وهو معنى النظر في المآلات»^(١).

رابعاً: أنها بنيت على تفهم طبيعة الزمان ومعرفة سنن الله في الحياة. إن على القائم بأية مبادرة اقتصادية كانت أم غيرها أن يكون فقيهاً بأحوال الزمن وعليماً بسنن الله تعالى في خلقه، وقد تجلّى في الآيات الكريمة محل البحث استشراف سيدنا يوسف لآفاق المستقبل وعلمه بما سيكون عليه الأمر وقت الشدة، وأوضح للناس أنه بدون العمل لن ينجو أحد، فالشدائد لا تحابي أحداً بل هي على طبيعتها في القسوة والغلظة، ولا ينجو منها إلا من استعد لها أشد الاستعداد، فما لم تعمل الأمة لن تجد. وصاحب المبادرة الذكي هو من يكون على علم بطبيعة الزمان وشدائده التي لا تحابي ولا تجامل، فإذا هجم السيل على مؤمن وغير مؤمن فلن ينجو إلا من تعلم السباحة.

وقد تجلّى هذا الملمح في وصف يوسف-عليه السلام- سني الجذب بأنهن ﴿ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾^(١) وهذا تعبير في غاية البلاغة إذ وصف السنوات السبع التي تحدث فيها الشدة والمجاعة بأنها شديدة وأنها تأكل ما يقدم لها كأنما تلتهمه التهاماً لا تبقي منه إلا اليسير، وهذا تصوير في غاية القوة لما سيحدث في تلك السنوات.

يقول الطاهر ابن عاشور: « وَالشِّدَادُ: وَصْفٌ لِسِنِّي الْجَدْبِ، لِأَنَّ الْجَدْبَ حَاصِلٌ فِيهَا، فَوَصَفَهَا بِالشِّدَّةِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ. وَأَطْلَقَ الْأَكْلَ فِي قَوْلِهِ: يَأْكُلْنَ عَلَى الْإِفْنَاءِ كَالَّذِي فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى

أَمْوَالِكُمْ﴾^(١) وَالْمَعْنَى: أَنَّ تِلْكَ السِّنِينَ الْمُجْدِبَةَ يَقْنَى فِيهَا مَا أُذْخِرَ لَهَا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُ يَبْقَى فِي الْأَهْرَاءِ، وَهَذَا تَحْرِيصٌ عَلَى اسْتِكْثَارِ الْإِدْخَارِ^(٢).

فهي سنوات شديدة على الناس، تضطربهم لإخراج كل ما ادخروا، ليدفعوا ضررها، ويأكل الناس فيها ما قدموه من قبل لها، وهياؤه لدفع شدتها، ووصفت بأنها تأكل مع أن الأصل هم الذين يأكلون؛ لأن هذه السنين تكون غير منتجة، فكأنها هي التي تأكل^(٣).

إن فقه طبيعة الزمن ومعرفة السنن الكونية التي لا تحابي أحدا من أهم العوامل التي تساعد على اتخاذ قرار سديد، واتباع تدابير من شأنها أن تساهم في الخروج من الأزمة أما الغفلة عن هذه السنن فهو كمن يمشي معصوب العينين أو كمن يخوض في مخاضة لا يدري على أي شيء يقع، ونهايته معلومة لا ريب في ذلك.

وقد رأينا في الماضي والحاضر ما يؤكد أن البقاء للأقوى وأن من يتخلف لا يأخذ أحد بيده، تلك سنة من سنن الله في كونه لا تتخلف ولا تتبدل.

خامسا: أنها بنيت على أساس اتخاذ التدابير اللازمة لحماية المنتج.

وهذا من الأهمية بمكان في المبادرات الاقتصادية، فالمبادرة التي لا تضع سياسات صارمة تحمي المنتج مبادرة فاشلة؛ إذ ما الفائدة في أن تنتج كثيرا ثم يذهب هذا المنتج نهبا لعوامل التعرية والفساد وخراب الذمم؟! ولذلك راعى سيدنا يوسف - عليه السلام - في مبادرته حماية المنتج وحسن إدارته، وذلك بحمايته ووضعه في أماكن مناسبة كي لا يطاله الفساد،

١- سُورَةُ النَّسَاءِ: ٢.

٢- التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٧).

٣- زهرة التفاسير (٧/ ٣٨٣١) بتصرف.

واستبقاء جزءٍ منه لإعادة زراعته مرة أخرى، وكذلك حماه بالحراسة من اللصوص والفاستدين الذين لا يعينهم أمر بلادهم ولا مستقبلها فيهمون على أقوات الناس غير عابئين بما يمكن أن يسببه هذا الفعل من دمار الاقتصاد الذي يؤدي إلى انهيار الدولة.

كل هذه المعاني مما استنبط من قوله تعالى: ﴿فذروه في سنبله﴾، وقوله: ﴿إلا قليلا مما تحصنون﴾.

أما قوله تعالى: ﴿فذروه في سنبله﴾ فلأن في بقاء الحب في سنبله حماية له من التسوس، قال ابن عطية - رحمه الله - عن هذا الرأي الذي أشار عليهم به يوسف - عليه السلام - : « إشارة برأي نبيل نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل، فإن الحبة إذا بقيت في خبائها انحفظت »^(١).

وأما قوله تعالى: ﴿إلا قليلا مما تحصنون﴾ فله عدة معان ذكرها المفسرون، أحدهما: مما تدخرون، قاله قتادة. الثاني: مما تخزنون في الحصون. ويحتمل الثالث: مما تبذرون لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات، وفي فتح الباري: قوله تحصنون تحرسون من الحراسة وعند أبي عبيدة في المجاز تحرزون بزاي بدل السين من الاحراز وأخرج بن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس تخزنون بقاء معجزة ثم زاي ونونين من الخزن^(٢).

١- المحرر الوجيز ٢٤٩/٣.

٢- فتح الباري ٣٨٢/١٢، المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٣٩)، فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٩)، روح المعاني ٤٤٥/٦، تفسير الخازن: ٥٣٢/٢.

ولا يمتنع أن تجتمع هذه المعاني المذكورة للإحصان: [الادخار - التخزين - البذر - الحراسة - الإحراز]، فيراعى ذلك كله في المنتج بأن يدخر منه معظمه، وأن يخزن هذا المدخر في مخازن خاصة به، وأن تحرس لكيلا يستولي عليها اللصوص.

وهذه الملمح المهم في مبادرة يوسف - عليه السلام - يدل على أن للدولة سياستها الخاصة في الادخار وفي تخزين بعض السلع الضرورية، وتنظيم استهلاكها بما لا يتعارض مع مصالح الناس فلها أن تتخذ من التدابير والسياسات ما يحفظ اقتصادها قويا. حبوب للانتفاع بها وقت الشدة، وسمح لهم بتناول ما يقيم صلبهم، والاحتفاظ بالباقي، وتلك هي السياسة الرشيدة المناسبة للظرف، وهي تدل على عقل واع وفقه بالظرف.

وقد رأينا من خلال معاشتنا للآيات الكريمة ما فعله سيدنا يوسف - عليه السلام - حيث أمرهم بتخزين أكبر قدر ممكن من الأقوات والاحتفاظ بأكثر المخزون، تحسب لأيام الشدة، كما أمرهم بالمحافظة على ذلك المخزون، وحمايته، حتى إذا احتيج إليه كان صالحا للاستخدام، وتلك سياسة واعية وفقه رشيد بما تستلزمه الظروف.

هل ما فعله يوسف - عليه السلام - من باب الاحتكار المنهي عنه؟
ليس ما فعله سيدنا يوسف - عليه السلام - من باب الاحتكار المذموم، ولا يتعارض مع النهي عن الاحتكار الوارد في السنة^(١)، فالاحتكار الذي هو حبس مال أو منفعة أو عمل، والامتناع عن بيعه وبذله حتى يغلو

١- كما في صحيح مسلم، في كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات: أن النبي ﷺ قال: «من احتكر فهو خاطئ» وللعلماء في حكم الاحتكار تفصيل موضعه في كتب الفقه، وضابطه أنه إذا أضر بالناس فهو حرام.

سعره غلاء فاحشا غير معتاد بسبب قلته وانعدام وجوده في مظانه ، مع شدة حاجة الناس أو الدولة أو الحيوان إليه - حرام باتفاق الفقهاء: (الحنابلة، والمالكية، والزيدية، والإباضية، والظاهرية، والحنفية، وجمهور الشافعية، وأكثر الإمامية) لما فيه من الإضرار بالناس، والتضييق عليهم (١).

كما اعتبره ابن حجر الهيتمي من الكبائر. وقال: إن كونه كبيرة هو ظاهر الأحاديث، من الوعيد الشديد، كاللعنة وبراءة ذمة الله ورسوله منه والضرب بالجذام والإفلاس. وبعض هذه دليل على الكبيرة (٢).

قال ابن خلدون في المقدمة عن الاحتكار قال: «ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الأمصار، أن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشؤوم. وأنه يعود على فائدته، بالتلف والخسران. وسببه، والله أعلم، أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبذلون فيها من المال اضطراراً، فتبقى النفوس متعلقة به. وفي تعلق النفوس بمالها سر كبير في وباله على من يأخذه مجاناً، ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل. وهذا وإن لم يكن مجاناً فالنفوس متعلقة به، لإعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالمكره. وما عدا الأقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطراراً للناس إليها، وإنما يبعثهم عليها التقنن في الشهوات، فلا يبذلون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص. ولا يبقى لهم تعلق

١- تفسير القرطبي ١٢:٣٤، الاختيار ٤ / ١٦٠، المغني ٤ / ٢٤٣، بدائع الصنائع

١٢٠/٥، شرح النيل وشفاء العليل ١٦٧/٨، المحلى ٦٤/٩، تبين الحقائق شرح

كنز الدقائق ٢٧/٦، المهذب ٢٩٢/١، الروضة البهية ٢٧٤/١، ٢٩٢.

٢- الزواجر ٢١٦/١.

بما أعطوه. فلهذا يكون من عرف بالاحتكار، تجتمع القوى النفسانية على متابعتها، لما يأخذها من أموالهم، فيفسد ربحه»^(١).

وقد تعرض الإمام القرطبي لموقف سيدنا يوسف -عليه السلام- واستتبط منه جواز احتكار للمصلحة، قال: «وهو يدل على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة»^(٢).

قلت: لكن ظاهر كلام الإمام القرطبي موهم، فظاهاه إباحة الاحتكار عموماً وقت الحاجة، وفي هذا كلام للعلماء ظاهر المنع والتحریم، لأنه يراد منه رفع الأسعار على الناس لتحقيق أقصى ربح ممكن لفئة معينة، ولعل مراد الإمام القرطبي -رحمه الله تعالى- الاحتكار الذي تقوم به الدولة لبعض السلع للاستفادة منها مستقبلاً، إذ القصد مختلف، فالدولة تحتكر الطعام للمصلحة العامة، فيعود النفع على الجميع، وأما احتكار الأشخاص فالعائد من ورائه نفع شخصي لفئة معينة، مما يجعل المال دولة بين فئة بعينها من فئات المجتمع. فظهر مما سبق الفرق ما بين النوعين، والله تعالى أعلم.

٢- مقدمة ابن خلدون ص: ٢٢٤.

٢- تفسير القرطبي ٩/ ٢٠٤.

المطلب الثاني الأسس الروحية والنفسية

ويقصد بها الصفات النفسية، والسمات المعنوية والروحية، التي يتحلى بها المتصدر لحل الأزمة، كالشجاعة، والعفة، والعدل، والصدق، وما عليها مما ينبغي أن يتوافر فيمن يتصدى لحل المشكلات، وقد ظهر ذلك في الأسس التالية:

أولاً: أنها بنيت على أساس من نور الوحي وهدى النبوة.

فما كان لنبي يوسف -عليه السلام- أن يبدي مثل تلك الحلول البارة بدون وحي من الله، واتصال بالسماء؛ فإن سيدنا يوسف -عليه السلام- زادهم علم سنة بشرهم فيها بالخصب والازدهار ولم يكن هذا وارداً في رؤيا الملك، بل الوارد حديث عن سبع سنين يعقبهن سبع فالمجموع أربع عشرة سنة، وتعبير سيدنا يوسف كان أوسع وأشمل فلو اقتصر على مجرد تعبیر الرؤيا لقال للملك: ستواجه مصر سبع سنين خصبة، تعقبها سبع سنين مجدبة، ثم يتركه بعد ذلك يدبر أمر مملكته كيف يشاء، ولكنه زاد على التعبير أن أرشده إلى ما ينبغي اتباعه تقادياً للأزمة المتوقعة، ثم زاده بالتبشير بسنة رخية فوق سنين الرؤيا تكون محلاً للخصب والنماء، وهذا من بركات الوحي ونور النبوة.

يدل على هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾، ذكر المفسرون عن قتادة رضي الله عنه قال: « زاد الله

علم سنة»، وزاد الطبري عن قتادة: « هذا علم آتاه الله يوسف لم يُسأل عنه»^(١).

فهذه البشرية زيادة على الرؤيا لم ترد في سؤال السائل تعبير الرؤيا ولكنها زيادة من يوسف - عليه السلام -، وهذا من بركات النبوة، وهو فضل من الله تعالى يفيضه على أوليائه، وأهله، وعباده الصالحين الذين يأخذون بالأسباب، ويستعينون معها بمسبب الأسباب، فيفيض الله عليهم من بركات الاعتماد والتوكل عليه ما يثبت للناس صدقهم وعظمة الارتباط بالقدرة العليا.

ويستتبط من هذا ضرورة التزام المتصدي لتدبير الأمور وإدارة الأزمات بتعاليم دينه وأوامر ربه، ووجوب اتصاله بالله -تعالى-، وتقوية العلاقة به، فإن هذا من أعون الأسباب على حل المعضلات، والتصدي للمشكلات، والخروج من الأزمات، وسبب من أسباب الرشد والصواب، وفتح للأذهان على حلول لم تكن لتخطر على البال لولا فضل الله تعالى، ولطفه بأهل الصلاح والتقوى.

وإذا كان هذا في حق الأنبياء - عليهم السلام - فإن لأتباعهم نصيبا منه أيضا ولكن على قدرهم؛ فلكلِّ مقامه وقدره لكنَّ قانون العطاء واحد. ونلاحظ هنا أن الله تعالى يرحم الأمة بالصالحين فيها ويدفع الوباء والمحن بسببهم، فإن الله تعالى لطف بمصر بسبب وجود النبي الكريم يوسف - عليه السلام بينهم -، وهذا ملمح تنبه له الطاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى فقال: « وهو منامٌ حكمتُه كانت رؤيا الملك لطفًا من الله بالأمة التي أوت يوسف - عليه السلام -، ووحيا أوحاه الله إلى يوسف - عليه السلام -

١- تفسير الرازي: ٤٦٥/١٨، تفسير الطبري ١٦/ ١٣٠.

بواسطة رؤيا الملك، كما أوحى إلى سليمان - عليه السلام - بواسطة الطير، ولعل الملك قد استعد للصلاح والإيمان^(١).
ونلمح في ظلال الآية الكريمة الفرق ما بين اجتهاد المؤمنين بالوحي السماوي المعتمدين على القدرة العليا مع الأخذ بالأسباب، وبين من يأخذون بالأسباب دون الالتفات إلى مسبب الأسباب - ﷻ - فالأخذون بالأسباب المستعينون بمسببها يعطون ثمرة جهدهم ويُزاد لهم مع هذه الثمرة توفيق المسبب وبركته، وعونه، وتوفيقه في الوقت الذي يحرم من تلك المنح من أخذوا بالأسباب ولكنهم غفلوا عن استئزال بركة المسبب - ﷻ - فهؤلاء وإن أعطوا ثمرة الجهد الذي بذلوه بمقتضى العدل الإلهي فإنهم يحرمون التوفيق والبركة للذين لا يعطاهما إلا المتصلون بالله رب العالمين، فالأمة في مبادراتها المختلفة بجميع أنواعها اقتصادية واجتماعية وسياسية- ينبغي أن تضع في حسابها هذه الصلة الإلهية بالله رب العالمين فهي التي تمدها بالقوة والبركة والتوفيق.

ثانيا: أنها بنيت على أساس من التجرد والإخلاص ونسيان الذات.
والتجرد والإخلاص من أهم الأسباب لنجاح أية مبادرة، وخصوصا وقت الأحداث الجسام التي تمر بها البلاد، وقد تجلت روعة شخصية سيدنا يوسف - عليه السلام - في تجرده، وإخلاصه، ونسيانه ذاته ومحنته الشخصية، في سبيل تقديم يد العون لمن استعان به، وقد ظهرت هذه الروعة وهذا الكمال الإنساني الفريد في عدة أمور:

١- أن سيدنا يوسف -عليه السلام- لم يعاتب السائل على نسيانه إياه بضع سنين في السجن؛ فهو نبي معلّم من قبل الله -تعالى- يعلم أن كل شيء بقضاء وأن الأمور تجري بالمقادير ولذلك لم يعنفه لكنه بادر إلى تعبير الرؤيا، بل وزادهم رؤيته الخاصة مستمداً ذلك كله من معين الوحي الذي شرفه الله -تعالى- به.

٢- أنه مسجون والسجين لا يهمله ما يدور خارج أسوار السجن غالباً إلا ما له صلة به وأما ما عدا ذلك فشان لا يعنيه لأن نفسية السجين في الغالب لا تسمح بمثل هذا النمط من التفكير الإبداعي وذلك للظروف التي يحياها داخل السجن، ومع ذلك لم يتردد في المساعدة رغم ظروفه الشخصية والنفسية الشديدة.

٣- ثم إن هذا السجن ظلم صارخ وهذا من شأنه أن يثير في نفسه دوافع الانتقام والتشفي في بلد وفد إليه صبيبا ضعيفا فلم يفتح له ذراعيه، بل صدمه صدمات متواليات كانت الواحدة منها كفيلا بهدمه ومحوه.

٤- وهو فوق هذا غريب عن هذا البلد، وليس له به قربي ولا رحم، فما الذي يدعوه إلى أن يدلهم على ما ينجون به من مجاعة قادمة؟! ولكن مع كل هذا أبت عليه نفسه الزكيّة، وخصاله الحميدة المرضيّة، وإخلاصه، وتجرده أن يتخلى عن تقديم يد العون لمن استعان به، فأوّل الرؤيا على أتم ما يكون التأويل، وقدم كل ما لديه من أجل أن يجنب مصر ويلات مجاعة محققة.

وهذا يدلنا على وجوب الإخلاص للمكان الذي يحيا فيه الإنسان، وألا يبخل المرء عليه بشيء يمكن أن يكون سببا في ارتقائه وازدهاره، ففي هذا الأساس إشارة مهمة لكل راغب في الإصلاح أن يكون مخلصا لأمتة ووطنه، وأن يراعي المصلحة العامة لا الخاصة، وخصوصا في أوقات

الشدائد والأزمات، فليس الوقت صالحا لعرض الأمور الشخصية، فإذا انتهت الأزمة فله بعد ذلك أن يطالب بما له من حقوق طالما كان ذلك في إطار الشرع والقانون، وهذا بالضبط ما حدث ليوسف عليه السلام، حيث طالب بحقه المهذور، ولكن بعدما قدم واجبه تجاه الأزمة القادمة، ولقد كان ذلك التصرف النبيل من سيدنا يوسف -عليه السلام- موضع إعجاب وتقدير من نبينا محمد -ﷺ- حيث يقول: « لقد عجبت من يوسف -عليه السلام- وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترب عليهم أن يخرجوني ولقد عجبت من يوسف -عليه السلام- وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر»^(١).

ثالثا: أنها بنيت على أساس من التفاؤل وبعث الأمل في النفوس.

لابد أن يتمتع صاحب المبادرة بالنظرة المتفائلة في غد أفضل، فهذا يدفعه أولا على المضي قدما في مبادرته، وعدم السماح للكسالى الذين غلب عليهم الكسل والرضا بالواقع بالتراجع والتثبيط، والافتتاع بما تأتي به الظروف دون بذل أية محاولة لتغيير تلك الظروف أو حتى التعامل معها. إن عليه أن يفهم أن الشدائد - مهما عظمت - فهي إلى انقضاء بشرط الجد والعمل والأخذ بأسباب الخروج من الأزمة، وفي هذا ما فيه من تجديد دارس الأمل في النفوس فتقبل على الحياة وكلها أمل في الفرج. وقد ظهر ذلك واضحا جليا في قول الله تعالى على لسان يوسف -عليه السلام-: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

١- تفسير الطبري: ٢٣٦/١٢، تفسير ابن أبي حاتم: ٢١٥٦/٧، تخريج الأحاديث والآثار ١٦٨/٢، فتح الباري: ٣٨٣/١٢، الدر المنثور: ٥٤٥/٤.

إن هذه العبارة بشرى بانقضاء المجاعة، وذهاب القحط والجوع بعد المدة التي حددها، وفي ذلك ما يضيء بارقة الأمل أمام هذا الشعب المترقب لأيام سود، مظلمة، شديدة، لا يدري أولها من آخرها، ولكن يوسف - عليه السلام - بشرهم بأنها فترة وستنقضي، وستعود الحياة إلى سيرتها الأولى وعهدها الأول رخاء سهلة يحياها الناس ببسر وسهولة، ولم يصعب الأمور عليهم فلم يقل مثلاً: إن الشدة ستدوم أربع عشرة سنة، بل قسمها فترتين لتهون على نفوس المتلقين والسامعين، وفي هذا ما فيه من دفع الناس إلى العمل ثقة في النجاح، فهو آت لا ريب فيه وإن تأخر وقته وتراخى زمنه كما يفيد التعبير ب﴿ ثُمَّ ﴾ المفيدة للتراخي.

يقول ابن عاشور: « فَهُوَ بِشَارَةٌ وَإِدْخَالُ الْمَسْرَةِ وَالْأَمَلُ بَعْدَ الْكَلَامِ الْمُؤَيِّسِ، وَهُوَ مِنْ لَازِمِ انْتِهَاءِ مُدَّةِ الشَّدَّةِ، وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حُصُولِ الْيُسْرِ بَعْدَ الْعُسْرِ »^(١)، «وفى هذا ما يشد عزمات الناس، ويمسك بهم على طريق الصبر والاحتمال، حيث تتوارد عليهم الحياة في شدتها ولينها، وضرائها وسرائها» كما يقول صاحب التفسير القرآني للقرآن^(٢).

والمتمأمل في القرآن الكريم يجد أن التفاؤل والأمل كان من أهم سمات شخصيات الأنبياء عليهم السلام، وأعظم هؤلاء نبينا محمد - ﷺ -، فقد روى البخاري في صحيحه عن عدي بن حاتم، قال: «بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة، لترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى

١- التحرير والتنوير ١٢/٢٨٦.

٢- التفسير القرآني للقرآن ٦/١٢٨٣.

تَطُوف بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، - قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيَّنَ دُعَاؤَ طَيْبِي الَّذِينَ قَدْ سَعَرُوا الْبِلَادَ -، وَلَئِن طَأَلْتُ بِكَ حَيَاةً لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى»، قُلْتُ: كِسْرَى بِنِ هُرْمَزَ؟ قَالَ: " كِسْرَى بِنِ هُرْمَزَ، وَلَئِن طَأَلْتُ بِكَ حَيَاةً، لَتَرِيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِائَةَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِصَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ... قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتَ الظَّعِينَةَ تَرْتَجِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بِنِ هُرْمَزَ وَلَئِن طَأَلْتُ بِكُمْ حَيَاةً، لَتَرُونَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُخْرِجُ مِائَةَ كَفِّهِ « (1) الْحَدِيثُ.

وهكذا ينبغي على من تصدر لحل المشكلات وإدارة الأزمات أن يفتح أبواب الأمل أمام الجماهير، وأن ينفخ فيها من روحه المشبعة بالتفاؤل والأمل حتى يقبلوا على العمل بقلوب منسرحة ونفوس آملة في غد أفضل. رابعا: أنها بنيت على الجرأة المحمودة، والشجاعة الأدبية المطلوبة. وقد ظهرت تلك الجرأة والشجاعة الأدبية في موقفين ذكرتهما الآيات الكريمة عن يوسف عليه السلام:

الموقف الأول: لهجة الخطاب التي تحمل طابع الجد.

فقد كانت لهجة خطاب سيدنا يوسف -عليه السلام- لمن جاء يستفتيه ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾^(١) لهجة الأمر إذ رأى غير قليل من المفسرين أن ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾ خبر في معنى الأمر أي: ازرعوا، بدليل قوله بعده ﴿ فَذَرُوهُ ﴾ الذي هو أمر صريح، كما مر بيان ذلك في المبحث الأول عن تناول التحليلي للآيات.

وبالتأمل في هذا الأمر من يوسف -عليه السلام- على الرأي القائل بذلك- يتبين لنا أن أمره -عليه السلام- ليس أمراً يتدخل به في سلطة ليست من حقه؛ إذ لم يكن حتى تلك الساعة ذا ولاية أو منصب يعطيه الحق لإصدار أوامر، بل هو إحساس بالمسؤولية، ومحاولة إيصال هذا الإحساس إليهم عن طريق هذا الأمر الذي يشير إلى وجوب أخذ الاستعداد والاحتياط، وأخذ الأمور بجد وحزم، لمواجهة الأزمة، وكأنه ليس أمراً صادراً من يوسف -عليه السلام- بل هو أمر صادر من الظرف والواقع الذي يقضي بضرورة المسارعة بالتنفيذ، وكأن تنفيذ هذا الأمر هو تنفيذ لأمر الظروف واستجابة واجبة لنداء الواقع لا لأمر يوسف -عليه السلام-.

وعبارة صاحب الكشاف التي استفيد منها هذا المحور هي قوله: « تَزْرَعُونَ خبر في معنى الأمر، كقوله: ﴿ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ ﴾^(٢) وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب

١- سورة يوسف من الآية: ٤٧.

٢- سورة الصف من الآية: ١١

المأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله ﴿فَدَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾^(١).

وقد شرح صاحب المنار عبارة صاحب الكشاف الدالة على هذا المعنى وبين أن التعبير بهذا الأسلوب من بلاغة القرآن العالية في التعبير، فقال: « قَالَ يُوسُفُ مُبَيَّنًا لِلْمَلَأِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ عَمَلُهُ، لِتَلَا فِي مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنَ الْخَطَرِ عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، قَبْلَ وَفُوعِ تَأْوِيلِهَا الَّذِي بَيَّنَّهُ فِي سِيَاقِ هَذَا التَّدْبِيرِ الْعَمَلِيِّ، وَهَذَا صَرَبٌ مِنْ بِلَاغَةِ الْأُسْلُوبِ وَالْإِجَارِ، وَلَا تَجِدُ لَهُ صَرِيحًا فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ، خَاطَبَ أُولِي الْأَمْرِ بِمَا لَقِّنَهُ لِلْسَّاقِي خِطَابَ الْأَمْرِ لِلْمَأْمُورِ الْحَاضِرِ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمُ الشُّرُوعَ فِي زِرَاعَةِ الْقَمْحِ دَائِبِينَ عَلَيْهِ دَابًّا مُسْتَمِرًّا، سَبَعَ سِنِينَ بِلَا انْقِطَاعٍ »^(٢).

فقد علم يوسف - عليه السلام - - بما علمه الله تعالى - أن الأمر غاية في الخطورة ولهذا رأى وجوب البدء في مواجهة الخطر الداهم قبل أن يغشى الناس فلا يستطيعون له ردا ولا دفعا، ف جاء حديثه بهذا الأسلوب الذي عرضه القرآن أي أنه لا بد لكم من أن تزرعوا وتجتهدوا في الزراعة والتخزين حتى تستطيعوا مقاومة الخطر القادم.

إن الهزل والاستخفاف بما يحمله المستقبل من مفاجئات قد تطيح بشعوب كاملة له أكبر الأثر على مستقبل البلاد والعباد، ولذلك فلا بد لأية مبادرة اقتصادية ناجحة أن يكون عنصر الجدية صفة ملازمة لها في كل مراحلها، وأن تُحمَلِ الأمور فيها على محمل الجد، فللجد وقته وللهزل وقته، ووضع أحدهما في موضع الآخر سخر وجنون.

١- الكشاف: ٤٧٦/٢.

٢- تفسير المنار (١٢/ ٢٦٣) الكشاف: ٤٧٦/٢.

الموقف الثاني: طلبه من ملك مصر توليته إدارة ملف الأزمة.

فقد رأينا من يوسف -عليه السلام- شجاعة أدبية محمودة ومطلوبة حين طلب من ملك مصر أن يوليه إدارة الملف الاقتصادي، ليستطيع من خلال خبرته، وعلمه ونور الوحي الذي تشرف به أن يباشر تلك الترتيبات، وأن يدير الأزمة على هدى وبصيرة، وهذه جرأة محمودة بل مطلوبة، فالمبادرات لا تعرف الجبن ولا التردد ولا الأيدي المرتعشة، بل تحتاج إلى إقدام وجرأة في تحمل المسؤولية فمتى ظهر للإنسان وجه يرى من خلاله أنه يستطيع أن يقدم من خلاله خدمةً لمجتمعه ووطنه، فإنه ينبغي عليه بل يجب أن يدلي بدلوه في دفع الضرر أو جلب الخير لمجتمعه.

وهذا ما حدث من سيدنا يوسف -عليه السلام- في مبادرته الاقتصادية التي أنقذت مصر حيث طلب من الملك أن يوليه مسؤولية الإدارة المالية في البلاد فقال للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ حَفِيفٌ عَلِيمٌ﴾، أي: ولني خزائن أرضك إني أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف، فقد وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبه الملوك ممن يولونه.

قال الزمخشري: «وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله -تعالى- وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تُبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا»^(١).

لم يكن هذا الطلب إذًا حبا في الزعامة ولا رغبةً في مجرد الجلوس على كرسي الحكم ولكن لأنه رأى نفسه أكفأ الموجودين لهذا المكان في تلك الظروف فكان طلبه جاء تلبيةً لنداء الضمير الحي، والمشاعر المرهفة التي تتوقد حبا في الخير، ورغبة في النفع لعموم الناس، وقد أرفق بطلبه

١- تفسير الزمخشري ٢/ ٤٨٢.

هذا مؤهلاته التي دفعته إليه فهو ﴿حَفِيزٌ، عَلِيمٌ﴾، وهما مؤهلان مطلوبان لمن يكون في موقع المسؤولية وخصوصا المسؤولية المالية، لأنها تحتاج إلى شخص أبيض قنوع يربأ بنفسه، ويمنع غيره عن الانحطاط في مستنقع الفساد والفاستدين الذين ينهبون خيرات البلاد والعباد دون وازع من ضمير، أو زاجر من دين.

فالحفيظ هو من يحفظ نفسه وغيره عن الوصول إلى المال بغير طريق شرعي وقانوني أو هو القادر على استحداث وسائل لحفظ المال عن الهدر والضياع، **والعليم** هو العالم بوجوه التصرف في الأموال، وابتكار أنفع الطرق لتنميتها وتكثيرها، وقيل العالم باللغات والألسن، ووجه علمه باللغات أن الذي يتولى مثل هذا المنصب قد يحتاج إلى التعامل مع دول أخرى لا تتكلم بنفس لغته فيحتاج إلى معرفة بلسانهم ليتمكن من التعامل معهم.

وقد استنبط المفسرون من هذه الآية جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه القدرة عليها، كما تقدم في المبحث الأول تفصيل الكلام عن ذلك بما يغني عن إعادته هنا.

خامسا: أنها بنيت على أساس الكفاءة الشخصية وإسناد الأمور لذويها. فليس كل شخص - وإن كان على جانب من العلم والثقافة - قادرا على حل المعضلات، فالمعضلات يختار لها من يحسنون حلها، كما قال الشاعر:

إن العظائم كفؤها العظماء^(١)

١- البيت لأحمد شوقي، في همزته الشهيرة في مدح خير البرية ﷺ، ينظر الشوقيات

ولابد في فريق إدارة الأزمة من تكوين خاص: عقائدي، وقيمي، وسلوكي، وتنظيمي، ومعرفي، وجسماني^(١) يؤهله لإدارة الأزمة، فليس للصدفة، ولا للعشوائية مكان في وقت الأزمات، بل لابد من التنظيم، وحسن الإدارة للخروج من الأزمة بأقل خسائر، أو بلا خسائر أصلاً.

وقد تجلّى هذا الملمح الخاص بمواصفات فريق إدارة الأزمات في وصف يوسف -عليه السلام- باعتباره قائداً لفريق إدارة الأزمات -ب(الصدق) في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾^(٢)، وكذلك وصفه ب(الإحسان): ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣)، وكذلك وصفه نفسه بالعدل في قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَطَّالِمُونَ﴾^(٤).

فالإحسان، والصدق، والعدل، من معالي الصفات التي ينبغي أن يتصف بها المبادرون والمتصدون لحل المشكلات بأنواعها المختلفة.

١- يقصد بالتكوين العقائدي: العقيدة التي تحكم الفريق والتي ينطلق من خلالها ويعتمد عليها كعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر وغيرها، والقيمي: وهي مجموعة القيم التي تضبط حركة الفريق كالعدل والإحسان والصدق وغيرها، والسلوكي: وهي مجموعة السلوكيات التي يقوم بها فريق الأزمة من الشجاعة والنجدة والمساعدة، والتنظيمي: يراد به هيكل الإدارات المختلفة التي ينشئها الفريق لإدارة الأزمة كإدارة التخطيط والأمن والموارد والحراسة وغيرها، والمعرفي: يراد به الخلفية المعرفية لدي الإدارة وقاعدة المعلومات التي يعتمد عليها، والجسماني: وهي المؤهلات الجسدية لفريق إدارة الأزمة

٢- سورة يوسف من الآية: ٤٦.

٣- سورة يوسف من الآيتين: ٧٨، ٣٦.

٤- سورة يوسف من الآية: ٧٩.

فالصِّدِّيق: هو الإنسان الذي صار الصدق دأبه وشيمته في كل أحواله، ووصفَه بذلك صاحبه؛ لأنه جرب منه الصدق التام أيام أن كان معه في السجن، والفرق بين الصادق والصِّدِّيق أن الصادق في قوله بلسانه، والصديق من تجاوز صدقَه لسانَه إلى صدقِ أفعاله في موافقةِ حاله لا يختلف سره وجهه، فصار كل صديق صادقاً وليس كل صادق صديقاً^(١).

ثم إنه يتمتع فوق هذه الصفات بخبرة واطلاع بأمور الحياة وقد تجلّى هذا في أمره للناس بتخزين الحصاد في سنابله، وذلك ينم عن خبرة بشؤون الحياة فالزرع الذي يخزن في سنابله لا يتطرق إليه الفساد بسرعة بل تحميه أغلفته من وصول السوس والآفات إليه فيبقى أمداً طويلاً ليفيد منه الناس بعد ذلك، قال ابن عطية - رحمه الله - عن هذا الرأي الذي أشار عليهم به يوسف - عليه السلام -: « هي إشارة برأي نبيل نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل، فإن الحبة إذا بقيت في خبائها انحفطت »^(٢).

فهذه الصفات التي اتصف بها يوسف - عليه السلام - هي التي أهلته ولفتت الأنظار إليه ليكون مديراً للأزمة المتوقعة بما أوتيته من صفات ليست في سواه.

ويتصل بهذا المعنى ويرتبط به معنى آخر، وهو أنه يجب مع حسن اختيار الخبرات احترامهم وتقديرهم والاعتراف بفضلهم، وقد استقى الإمام الرازي - رحمه الله - هذا المعنى من وصف السائل لسيدنا يوسف

١- الكشاف ٤٧٦/٢، المحرر الوجيز ٢٤٩/٣، التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/

٣٧٠)، تفسير الماوردي (٣/٤٣).

٢- المحرر الوجيز ٢٤٩/٣.

بالصديق حيث أعطاه حقه، وقدره، ووصفه بما فيه من الصفات التي أهلتها لهذه المكانة، قال: « وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيئاً فإنه يجب عليه أن يعظمه، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال»^(١)، فاحترام الكفاءات وتقديرهم واجب ديني، ووطني، وقومي.

كما يتصل بهذا المعنى معنى آخر وهو أنه ينبغي التفتيش عن الخبرات والكفاءات الخفية التي ليس لها حظ من الشهرة فقد تكون أكثر كفاءة من كثير من الظاهرين المعروفين؛ فإن أسباب الظهور كثيرة وليس كل ظاهر ومعروف ومشهور أهلاً لتولى زمام الأمور، وهذا المعنى مأخوذ من قول السائل لسيدنا يوسف -عليه السلام- ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فمن بين معاني العلم هنا: لعلمهم يعلمون فضلك وقيمتك فتخرج من أزمك وتفيد البلاد من خبراتك وكفاءتك^(٢)، ثم إنه قد دل الملك وأعوانه على يوسف وهو في غياهب السجن مستورا لا يعلم بحاله أحد إلا الله تعالى، ومع ذلك ذهب إليه وكان في بلد آخر غير بلد إقامة الملك^(٣) وطلب إليه تعبير الرؤيا التي رآها.

١- تفسير الرازي: ٤٦٥/١٨.

٢- تفسير الرازي: ٤٦٥/١٨.

٣- ورد هذا في تفسير البيضاوي وغيرها وليس بمستبعد أن يجعل للسجن مكان خاص بعيد عن إقامة الملك والناس إباحشا للمسجونين أو لتدابير أخرى يراها القائمون على الأمور. ينظر: تفسير البيضاوي (٣/ ١٦٦) ، تفسير ابن عطية ٢/٢٤٩، البحر المحيط ٦/٢٨٤.

الخاتمة، وتشتمل على:

أولاً: أهم النتائج:

بعد هذه الرحلة المثمرة مع سيدنا يوسف -عليه السلام- وهو يرسم لمصر خطة نجاتها من ويلات الفقر والجوع، يستطيع المتأمل أن يستخرج مجموعة من النتائج، وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

١- أن القرآن الكريم بحر لا ساحل له ومعين لا ينضب فقد ضمنه منزله - ﷺ - من المبادئ والقيم والمعاني ما يضمن سعادة البشرية، وقد تأكد لنا ذلك من خلال الجزء الذي تناوله البحث حيث اشتملت الآيات المذكورة وهي لا تتجاوز أسطرا يسيرة من المصحف على تخطيط محكم لحل أزمة كبيرة وذلك من بلاغة القرآن الكريم حيث يستثمر دائماً أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني.

٢- أن للقصاص القرآني أبعاداً كثيرة لا تقتصر على جانب العبرة، والعظة، والدعوة إلى التوحيد والتسوية، بل إن للقصة في القرآن أبعاداً أخرى لا تقل عمقا، ولا دلالة عما سبق، ومن ذلك أن القصة القرآنية وسيلة من وسائل علاج المشكلات باختلاف أنواعها: الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وقد كان الجزء الذي تناوله البحث من قصة يوسف -عليه السلام- خير دليل على دور القصة القرآنية في علاج المشكلات الاقتصادية مهما بلغت من التعقيد والصعوبة.

٣- أن خدمة الأوطان لا تتوقف على الاستدعاء، بل إنه متى وجد الإنسان نفسه ذا قدرة على تقديم النفع لوطنه ومجتمعه فإنه يجب عليه ذلك بلا تأخير أو تواني.

٤- أن الأمم التي تريد التخلص من مشكلاتها الاقتصادية عليها أن تشمر عن ساعد الجد والعزيمة وتترك التكاثر وراء ظهرها فما فاز إلا

- العاملون وما نجح إلا المجدون.
- ٥- أن التخطيط المحكم أساس مهم لنجاح أي مبادرة فبدونه تبقى الأمور عشوائية معلقة لا تتبين فيها ملامح النجاح.
- ٦- أن العمل الدائم الجاد الدؤوب أساس التقدم والرفي ، وأما التكاسل والتواني فسبيل للفشل والتأخر والتخلف.
- ٧- وجوب تسخير العلم في خدمة الحياة والأحياء، وجعله وسيلة للتقدم والمساعدة في تحقيق الرخاء والسعادة للمجتمعات.
- ٨- أن الاتصال بالله تعالى والقرب منه من أعون الأسباب على تجاوز الأزمات وحل المشكلات واستنزال الخير والبركة.
- ٩- وجوب التجرد ونسيان الذات والمصالح الشخصية وقت الأزمات، وتقديم المصلحة العامة على المصالح الشخصية.
- ١٠- على من يعملون لأوطانهم أن يشيعوا الأمل في النفوس في غد أفضل وأن لا يبثوا فيهم مشاعر التشاؤم كي لا يثبطوهم ويصيبوا قواهم بالشلل الناتج عن التشاؤم والنظرة إلى الوجود من خلال منظار أسود.
- ١١- على المسؤولين البحث عن الكفاءات والتفتيش عنهم وتشجيعهم للعمل من أجل أوطانهم، كما يجب أن يوضع المتميزون في مواضعهم التي تؤهلهم للعمل والإنتاج.
- ١٢- أن الله تعالى لا يترك العاملين المخلصين بل إنه تعالى يجعل لهم من المكانة والمنزلة وحسن السيرة وطيب السمعة في الدنيا بالإضافة إلى ما ينتظرهم من النعيم المقيم في الآخرة، وهي خير وأبقى.
- هذا وقد اشتمل البحث على كثير من النتائج فوق ما ذكر بكثير وهي لا تخفى على متأمل، والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلوات الله وسلامه على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: أهم المصادر والمراجع

- الإتيقان في علوم القرآن، للإمام السيوطي، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي، تحقيق الأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم الحفناوي، والدكتور/ إسماعيل محمد الشندي، ط. دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
- أسباب نزول القرآن، للإمام أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي تحقيق: د. ماهر يس الفحل دار الميمان- السعودية ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، ت: علي محمد البجاوي - دار الجيل، بيروت ط: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
- الإيضاح في علوم البلاغة، لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، ت: محمد عبد المنعم خفاجي الناشر: دار الجيل - بيروت.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع تأليف الإمام علاء الدين الكاساني الناشر دار الكتاب العربي.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي- ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم - ط/ دار المعرفة - بيروت.
- البيان في عدّ آي القرآن ، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤ هـ) ت: غانم قدوري الحمد- مركز المخطوطات والتراث - الكويت ط: الأولى، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤ م
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (الزبيدي) - ت: مجموعة من المحققين - دار الهداية..

- تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) تأليف الإمام: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي- دار التونسية للنشر - تونس.
- تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المحاربي - ت: عبد السلام عبد الشافي محمد - دار الكتب العلمية - بيروت - ط: الأولى - ١٤٢٢هـ.
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير - ت: سامي بن محمد سلامة- دار طيبة للنشر والتوزيع.
- تفسير أبي السعود: (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) للإمام: أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي- دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- تفسير أبي حيان، البحر المحيط للإمام أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي- ت: صدقي محمد جميل- دار الفكر - بيروت.
- تفسير أبي زهرة: زهرة التفاسير - للإمام محمد أبو زهرة- دار الفكر العربي - بدون سنة طبع.
- تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) للإمام: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي - ت: علي عبد الباري عطية- دار الكتب العلمية - بيروت- ط: الأولى، ١٤١٥هـ.
- تفسير البقاعي (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، للإمام: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي - دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.
- تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام: ناصر الدين البيضاوي: ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط: الأولى - ١٤١٨ هـ.

- تفسير الخازن - للإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشححي أبو الحسن، المعروف ت: محمد علي شاهين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط: الأولى - ١٤١٥ هـ.
- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين فخر الدين الرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
- تفسير الزحيلي، (التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج) - تأليف: د وهبة بن مصطفى الزحيلي - دار الفكر المعاصر - دمشق - ط: الثانية، ١٤١٨ هـ.
- تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون التأويل في وجوه الأقاويل) - لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري جار الله - دار الكتاب العربي - بيروت - ط: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.
- تفسير السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي - ت د/ أحمد محمد الخراط - ط/ دار القلم - دمشق - الأولى - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- تفسير السيوطي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور)، للإمام جلال الدين السيوطي، - مطبعة الأنوار المحمدية - مصر .
- تفسير الشعراوي (خواطري حول القرآن الكريم) - تأليف الإمام: الشيخ محمد متولي الشعراوي - مطابع أخبار اليوم - ١٩٩٧ م.
- تفسير الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني دار الفكر بيروت.
- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) للإمام محمد بن جرير أبي جعفر الطبري - ت: أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - ط: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- التفسير القرآني للقرآن - تأليف الأستاذ: عبد الكريم يونس الخطيب - دار الفكر العربي - القاهرة.

- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) - للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي - ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش - دار الكتب المصرية - القاهرة - ط: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- تفسير الماوردي (النكت والعيون) لأبي الحسن الماوردي البصري، تحقيق / خضر محمد خضر، ط. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) - تأليف الشيخ: محمد رشيد بن علي رضا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٠م.
- تفسير النيسابوري (غرائب القرآن و رغائب الفرقان) للإمام الحسن ابن محمد النيسابوري، ط. دار الصفوة، الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للدكتور: محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر الأسبق - دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - الفجالة - القاهرة - ط: الأولى _ ١٩٩٧، ١٩٩٨م.
- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الهرري الشافعي إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين دار طوق النجاة، بيروت - لبنان - ط: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.
- جمال القراء وكمال الإقراء، لعلي بن محمد بن عبد الصمد علم الدين السخاوي (المتوفى: ٦٤٣هـ) ت: د. مروان العطيّة ، د. محسن خرابية- دار المأمون للتراث - دمشق - بيروت ط: الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي المصري المالكي ت: د فخر الدين قباوة ، الأستاذ محمد نديم فاضل - دار الكتب العلمية- بيروت - ط: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.

- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، لأحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي - ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي - المكتبة العصرية، بيروت.
- حروف المعاني والصفات - لعبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، ت: علي توفيق الحمد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط: الأولى، ١٩٨٤م
- السيرة النبوية لابن هشام المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري أبي محمد، جمال الدين - ت: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي - مطبعة الحلبي - ط: الثانية، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥م.
- صحيح البخاري، للإمام: محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي - ت: محمد زهير بن ناصر الناصر - ط: الأولى، ١٤٢٢ هـ.
- صحيح مسلم للإمام: مسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري - ت: محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الطبقات الكبرى، لأبي عبد الله محمد بن سعد - ت: محمد عبد القادر عطا الناشر - الكتب العلمية - بيروت ط: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- طرح التثريب في شرح التقریب، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي - دار إحياء التراث العربي.
- العادات السبع للناس الأكثر فعالية، ستيفين آر كوفي - نشر مكتبة جرير - ط: الواحدة والعشرون - ٢٠٠٩م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لأحمد بن علي بن عبد الكافي، أبي حامد، بهاء الدين السبكي - ت: الدكتور عبد الحميد هنداوي - المكتبة العصرية بيروت - لبنان - ط: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي - ت: محمد باسل عيون السود - دار الكتب العلمية - ط: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- لسان العرب لابن منظور محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري - دار صادر - بيروت - الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني - ت: الأستاذ/ أحمد محمد شاكر - دار الحديث - القاهرة - ط: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.
- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي - ت: عبد السلام محمد هارون - دار الفكر - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، لابن هشام المصري - ت: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله.
- المفردات في غريب القرآن، للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني - ت: صفوان عدنان الداودي - دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت - ط: الأولى - ١٤١٢ هـ.
- الموافقات في أصول الشريعة، للإمام الشاطبي، إبراهيم بن موسى الغرناطي - دار ابن عفان - المملكة العربية السعودية - ط: الأولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.
- الموسوعة الفقهية الكويتية صادرة عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويت.
- النحو الوافي تأليف الأستاذ عباس حسن - دار المعارف بالقاهرة - ط: الخامسة عشر.